معالم على طريق الصحوة [١١]



* أهميته.
* عوامل بقائه وهدمه
* صور على الثبات وعدمه.

د. محمد موسى الشريف

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦٣٩١

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977-6142-74-5



دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع

١٨ شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - ت: ٠١٠١٠٦٨١٣٥

newandalus@hotmail.com



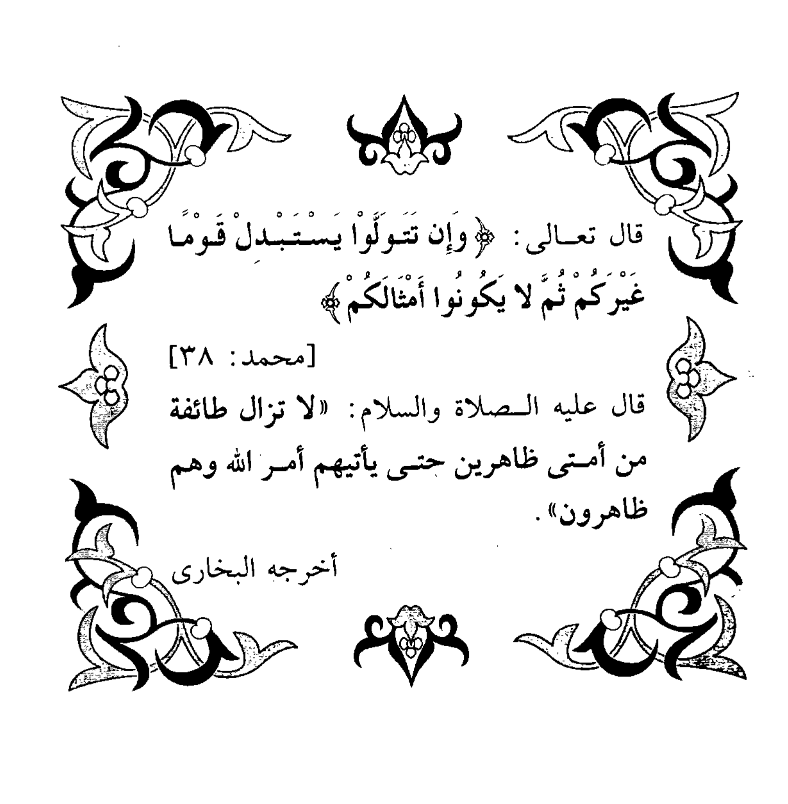
إهداء

إلى والدىَّ الكريمين

إلى كل مجاهد عامل لتمكين دين الله فى الأرض

إلى زوجتى العزيزة

إلى أولادى رجاءَ أن يكونوا من العاملين الثابتين



قال تعـالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

[محمد: ٣٨]

قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**».

أخرجه البخارى

مقدمة الناشر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد..

فإن الصحوة الإسلامية أمل المستقبل المرتقب، وعدة الغد المقبل، وقد عمَّ نورها الأرجاء، وظهر أبناؤها فى كل الأنحاء، وكان من آثارها الإنابة الخالصة والتوبة الصادقة والعبادة الخاشعة، ومن ملامحها النهضة العلمية والأصالة المنهجية والاستقلالية الفكرية، ومن مزاياها امتدادها فى مجالات الحياة المختلفة، واستفادتها من معطيات العصر الإيجابية، وجوانب الخير فيها -بحمد الله- كثيرة يضيق المقام عن حصرها.

ومع ما أسلفناه إلا أنها تحتاج إلى ترشيد وتسديد، وإلى تدعيم وتقويم، ومن ثم جاءت هذه السلسلة -معالم على طريق الصحوة- لتكون نبراسًا على الطريق، تعالج المشكلات، وتنضج الفهم وتقوى العزم، وتوضح المنهج، وتعلم الأدب، وتيسر الثقافة، وتحذر من المزالق.

وهذا الكتاب حوى ركيزة مهمة من الركائز التى يحتاجها جيل الصحوة، وهى الثبات الذى ينبغى التواصى به، والإعانة عليه، لأن هذا العصر ملىء بما يثير الشبهات، ويهيج الشهوات، إضافة إلى كثرة الفتن، وتزايد المحن، وفشو المنكرات وتنوّع الانحرافات وشدة الأعداء، وعظمة البلاء، مما يظهر عظمة الحاجة إلى الثبات.

والكتاب يبين معنى الثبات، ويعرض جوانبه المتنوعة، ويجلى أهميته البالغة، ويذكر بعض صوره، وصوراً أخرى عن عدم الثبات، ويوضح عوامل بقائه وعوامل هدمه، وذلك كله فى اختصار غير مخل، وسرد غير ممل، ونقول مختارة وأمثلة ممتازة، ولعل نفاد الطبعة الأولى والثانية من الكتاب فى ستة أشهر دليل على أهمية الموضوع من جهة، وجودة الكتاب من جهة أخرى.

وها هو الكتاب بين يديك كما وصفناه لك مع زيادات الطبعة الثانية والثالثة، نقدمه لك والأمل يحدونا أن تجد فيه كنزاً ثميناً، وزاداً معيناً.

الناشر

***

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذى شرح صدور المؤمنين، وثبتهم على الحق المبين، وأعانهم فكان لهم خير معين، وحماهم من إبليس وحزبه الغاوين، من شياطين الإنس والجن أجمعين، ووقاهم من سلوك المهالك، والهلاك فى أودية ومسالك، وربط على قلوبهم النقية، وأزال منها الوساوس الخفية، وألحقهم بالقافلة النورانية، أصحاب وأتباع خير البرية، وجعلهم من أهل اليقين، فلم يكونوا بحمد الله ضالين ولا شاكين.

والصلاة والسلام على خير الأنام، رسولِ ذى الجلال والإكرام، المبعوث رحمة للعالمين، ودلالة للحائرين، دعا إلى الله حتى أتاه اليقين، وصبر فكان صبره معونة للسالكين وثباتًا للمؤمنين.

أما بعد:

فقد كثرت فى هذا الزمان الفتن، وتنوعت المحن، وصار الثبات على الدين قليلاً فى الناس، إلا من فئة قليلة وهبت نفسها لله، واستصغرت فى جنبه -سبحانه- ما تلقاه، فقامت تدعو إلى الدين الصحيح، وتجنب المعاصى والبدع الخفىِّ منها والصريح، ونادت بالرجوع إلى ما كان عليه الرسول ﷺ والصحابة، من إقامة لشعائر الإسلام، وجهاد للكفرة وعباد الأصنام، فصارت تلك الفئة -بحمد الله- هى الظاهرة المنصورة، وغيرها من الفئات مرذولة مخذولة.

ولما كـان الأمر كـذلك فقـد رأيت أن أضع رسـالة فى تثبـيت أولئك الأطهار، وإسـعادهم بما ورد فى حقـهم وأمثالـهم من الآيات والأحاديث والآثار، وأذكر لهم بعض قـصص الثابتين العظماء، من الأنبـياء والرسل والأولياء، وأبين لهم مسالك إبليس، فى التلبيس والتيئيس، وأسرد عليهم الخصـال الموجبة للثـبات، وغيـرها من الخلال الناسـخة للرسوخ الموجـبة السخط والإبعاد، وإن كنت فى حقيقة الأمر مفتقرًا إلى كل ذلك التقويم، راجيًا من الله تعالى الثبات على الدين القويم.

ومما حملنى على تصنيف هذه الرسالة -أيضًا- ما أراه ويراه الناس من تراجع بعض الصـالحين عن التزام الدين، وانزواء بعض العـاملين مؤثرين الراحة على العمل لتـمكين دين الله فى الأرض، ورفع رايته فى العالمين، وظهور بعض المشايخ وطلاب العلم الطامحين لحطام من الدنيا مهين، هذه فئات من الناس مـوجودة فى المجتمـعات الإسلامية لكن بنسـبة قليلة لم تصل بعد إلى حد الظاهرة، بفضل الله تعالى.

ولَمَّا كان الأمر كذلك، وصار يُخشى على العاملين المخلصين من التأثير بهذا الداء الفتـاك -ضعف الثبات- وضعت هذه الرسالة للأسـباب الآنفة الذكر، وأرجو من الله تعالى القبول، وأن يثـيبنى عليها بما هو المأمول من واسع فضله العظيم وخيره العميم.

المؤلف

***

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد سُررت بنفـاد أعداد الطبعة الأولى والثانية، ومـبعث ذلك السرور هو اطلاع عدد كبير من الناس على موضوع الكتاب واقتناؤهم إياه، فلعل معانى الثبـات تخالط قلوبهم وعقولهم، وتنشرح لهـا صدورهم، فترسخ أقـدامهم، وتصح أفـهامـهم، فإن حـصل هذا فـهو المأمـول من تصنيف الكتـاب، إضـافة إلى ثواب يوم الحسـاب، والله المسـؤول أن يُلبس هذا الكتاب ثواب القبـول، وينيلنى وقارئه من الأجر ما هو المأمـول، وحسبى الله ونعم الوكيل.

المؤلف

***



معنى الثبات

الثبات لغة:

ثبت الشيءُ يثبتُ ثباتًا وثبوتًا فهو ثابت، وثبيت، وثبت.

ورجل ثبت: متثبت فى أموره.

وثبت الرجل: صار ثبيتًا(١).

والثبات: الاستقامة على الهدى، والتمسك بالتقى، وإلجام النفس وقسرها على سلوك طريق الحق والخير، وعدم الالتفات إلى صوارف الهوى والشيطان، ونوازع النفس والطغيان، مع سرعة الأوبة والتوبة حال ملابسة الإثم أو الركون إلى الدنيا.

***

(١) «تاج العروس»: ث ب ت.

جوانب الثبات

للثبات جوانب متعددة، منها:

١ - الثبات على دين الله -تبارك وتعالى:

ومنه قول يعقوب، عليه الصلاة والسلام، لبنيه: ﴿**يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهذا هو رأس المال الذى لايحتمل الخسارة، وهو وصية الأولين والآخرين من النبيين والصالحين.

٢ - الثبات على الالتزام بدين الله تعالى:

وهذا جانب مهم يدل على سلامة إيمان الشخص، وصحة تصوره لهذه الدار وللدار الآخرة، أما إن كان له فى كل وقت حال، وفى كل يوم تفلت ومآب فهذا يحتاج إلى مراجعة أمره والاهتمام بشأنه.

ويفكى أمثال هؤلاء نفور الناس منهم، وعدم الاعتداد بشىء مما يظهر عليهم من الصلاح والالتزام، لأنه سحابة صيف لا تلبث أن تزول.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان فى قلوبكم**»[1].

(١) قال الإمام الهيثمى: رواه الطبرانى فى الكبير، وإسناده حسن: انظر «مجمع الزوائد»: ١/ ٥٢.

والثوب الخَلَق: البالى، وانظر «لسان العرب»: خ ل ق.

وقال ﷺ موضحًا صعوبة الثبات على الدين فى هذا الزمان الذى نعيشه وضرورة المجاهدة والمدافعة للنفس والعدو:

«**الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر**»(١)، وهذا تصوير فريد لما يجرى اليوم فى دنيا الناس من تفلت من شعائر الدين وواجباته، ومن مجاهدة آخرين للبقاء على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالح.

٣- الثبات على المبدأ الإسلامى الصحيح والعهد الوثيق:

وهذا قد يتساهل فى شأنه بعض الناس فيبرم ميثاقًا وعهدًا، ثم يسوغ له نقضه بحجة أنه ليس بواجب شرعى، ومثال هذا أن يتفق أشخاص على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو الدعوة إلى دين الله تعالى، ثم يتنصل واحد أو أكثر من هذا الاتفاق، فإذا سلم -جدلاً وتنزلاً- أن هذا العهد والاتفاق ليس واجبًا شرعيًا أفلا يكون ترك ذلك العهد والميثاق من نقص المروءة، والتراجع عن المعروف؟ وللشرع المطهر آداب وواجبات يمكن أن يندرج الحفاظ على هذه المواثيق تحتها مثل المروءة، والفتوة، والحفاظ على العهد، والوفاء به، والتعاون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فمن ترك شيئًا من ذلك فقد أخل بآداب الشرع المطهر، وأخل -أيضًا- بالآداب الاجتماعية المتعارف عليها.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى كتاب الفتن، وهو حديث حسن بشواهده، وانظر «مجمع الزوائد»: ٧/ ٢٨٤-٢٨٥.

تقول العرب: «لفلان ذمام لا يُبليه الزمان، ولا كرور الأيام، ولا مرور الأعوام، وعهد لا يغيره تنقل الزمان وتكونه، ولا علل الدهر وحوادثه».

وتذم العرب من كان ليس ثابتًا فتقول:

«فلان لا ثبات لوده، ولا دوام لعهده، ولا بقاء لوصله، ولا وفاء لعقده»[1].

فالتراجع عن العهود والمواثيق عمل قبيح ولا شك، يدل على تذبذب فاعله وعدم ثباته، ويدل -أيضًا- على سوء فى التربية الإسلامية الصحيحة، والنظرة المتكاملة للكون والحياة.

وعلى العاقل أن ينظر إلى حال الثابتين على مبادئهم سواء أكانوا منا -أهل الحق- أم كانوا من أهل الباطل والعقائد الضالة، فإنهم يصلون إلى أهدافهم ولو بعد حين، لكن بعد ثبات عظيم وتضحيات كثيرة، ألم تر إلى الأحزاب الشيوعية كيف ثبتت على باطلها حتى تولت الحكم فى بلاد كثيرة فى أوروبا وآسيا وغيرها، وكذلك أهل الحق يصلون إلى مرادهم من زمان الرسل والأنبياء حتى يومنا هذا، لكن لابد من ثبات عظيم وصبر جميل.

قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

(١) «الألفاظ الكتابية»: ١٩٠.

الله أكبر، إننا والله نرجو من الله ما لا يرجو الشيوعيون الملاحدة، ولا العلمانيون غـير الدينيين، ولا الرأسماليـون، ولا الإباحيون، وكل أولئك يصبرون ويثبتون على باطلهم، أفلا نصبر نحن ونثبت على حقنا وعقيدتنا الصافية الصادقة؟ بلى إن شاء الله تعالى.

***

أهمية الثبات

الثبات معنى جميل عظيم، له فى نفس الإنسان الثابت وفيمن حوله من الناس مؤثرات مهمة تفعل فعلها وتؤثر أثرها، وفيه جوانب من الأهمية الفائقة فى تربية الفرد والمجتمع تتضح فى الآتى:

أولاً: الثبات دلالة سلامة المنهج وداعية إلى الثقة به:

لكل مسلم نهج ينهجه وطريق يسلكه يوصله إلى دار القرار، وللعزة أو الهوان، فإن كان فى نهجه ذلك دخل وفساد ظهر ذلك فى ثباته، فهو متقلب دومًا لا يكاد يثبت على أمر، أو يدوم على شأن، بل تجده كثير الوساوس، متعدد المطامع، دائم الشكوى، سريعَ الملل، فلا يحصل بعد ذلك إلا على شىء يسير من مراده، وتطول به السنون وهو لم يصنع شيئًا ذا بال، وما ذلك إلا لكثرة تقلبه وإضاعة أوقاته.

وحال مثل هذا الشخص دال على فساد منهجه وسوء طريقته، إذ لو استقام منهجه على طريقة ثابتة لاستقام حاله وارتفع شأنه، وتقلبه هذا دال على سوء تربيته الإسلامية، وقد يدل على ضعف إيمانه وقلة يقينه، وقد يتطور الأمر إلى أن ينافق المرء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد يدَّعى أشخاص أنهم أصحاب منهج صحيح فلا يلبثون أن ينقلبوا أو يضعف ثباتهم أمام المغريات والأهواء والشهوات.

ثانيًا: الثبات مرآة لشخصية المرء ومطمئن لمن حوله:

يثق الناس فى الثابت الراسخ، ويعظم أثره فيهم، حيث إنه يُشيع فيهم الطمأنينة إلى حاله والركون إليه، بينما القَلِق المتقلب قلما يُركن إليه ويوثق به، وهو عامل خوف واضطراب فيمن حوله من الناس.

ثالثًا: الثبات ضريبة الطريق إلى المجد والرفعة فى الدنيا والآخرة:

كل عمل عظيم يحتاج تحقيقه إلى ثبات وقوة فى التناول والأخذ، وليس هذا مقتصرًا على المسلمين فقط بل إن كل شعوب الأرض الطامحة لا تصل إلى المجد والرفعة والسناء إلا بثبات عظيم، ومن اطلع على تاريخ الغرب فى زمان الثورة الفرنسية والثورة الصناعية وثورة البخار علم قدر ثباتهم وتضحياتهم، ومن اطلع على تاريخ الشيوعيين القديم والحديث معًا علم مقدار ثباتهم على إلحادهم والعياذ بالله -تعالى- إذًا أفلا نكون نحن المسلمين أعظم ثباتًا منهم على حقنا وعقيدتنا؟ بلى والله.

رابعًا: الثبات طريقٌ لتحقيق الأهداف:

الثبات عامل مهم فى الأثر الذى يتركه الإنسان فى هذه الحياة، وهو الموصل -بإذن الله- إلى ما يريده المرء ويطلبه؛ فالمريد تغيير حركة التاريخ، والراغب تعبيد الناس لرب العالمين، والعامل على رفعة دينه وإعلاء رايته لا غنى له عن الثبات والرسوخ، وليس له -بغير الثبات- من مراده ذلك إلا الأوهام والأمانى.

***

صور على الثبات

يجدر بكل عظيم من العظماء وصفى من الأصفياء، من جند الله - تعالى- المقربين، ومن الدعاة العاملين أن يكون ثابتًا شامخًا راسخًا، لا يتزلزل ولا يتقلب. والأمثلة على هذا عظيمة كثيرة معروفة.

١- ثبات الأنبياء:

فالناظر إلى حال الأنبياء -خاصة أولى العزم منهم -يجد صور الثبات الرائعة القوية، فهذا إبراهيم- عليه الصلاة والسلام - لم يُؤمن له إلا قليل من قومه وعاداه منهم أقرب الأقربين، وأُلقى فى النار، وامتحن بالأمر بذبح بكره إسماعيل، ولم تزده تلك المحنُ إلا ثباتًا على الحق والطهر.

وهذا رسول الله موسى -عليه الصلاة والسلام- يواجه من قبل اليهود، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، بأعظم ما يواجه به نبى من الأنبياء من تكذيب وإعراض وسخرية واتهام فلم يزده ذلك كله إلا ثباتًا وقوة وعزمًا.

والناظر لسيرة رسولنا ﷺ يعلم عظم ثباته وقوة يقينه، بأبى هو وأمى ﷺ، ويكفى قوله ﷺ حينما ضغط عليه الكافرون ليهادنهم أو يلين لهم: **«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»**[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٢٦٦، وهذه قولة مشهورة ولكن ليس لها سند متصل، فيما أعلم، والله أعلم.

وقد ثبت النبى ﷺ ثباتًا عظيمًا، فقد سلك معه الكفار مسالك عدة ليثنوه عن ثباته فما لان وما هان، ﷺ:

«سلكوا معه طريق الإغراء بالمال والرئاسة والجاه، فما استكان وما خضع.

سلكوا معه طريق الضغط العائلى والتأثير الطائفى، فما استكان وما خضع.

سلكوا معه طريق الاستهزاء والسخرية والاتهام فما استكان وما خضع.

سلكوا معه طريق المقاطعة الاقتصادية الشاملة له ولمن آزره فما استكان وما خضع.

وقرَّروا أخيرًا اغتياله فما استكان وما خضع.

وبعد أن أذن الله له بالهجرة حاربوه بحملات متعددة وحروب طاحنة ليستأصلوا دعوته وأتباعه، فما كان ذلك يرده عن تبليغ الدعوة ونشرها فى الأرض...»(١).

ولنطف قليلاً فى الأحاديث والآثار والأخبار لنرى صورًا للثبات العظيم على الحق المبين فى حياة الأنبياء والصالحين قد يجهلها بعضنا:

(١) «صفات الداعية النفسية»: الأستاذ عبدالله علوان: ٣٧-٣٨.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«عُرِضَت علىَّ الأمم، فأخذ النبى يمر معه الأمة، والنبى يمر معه النفر، والنبى يمر معه العشرة، والنبى يمر معه الخمسة، والنبى يمر وحده..»[١].

فهذا رسول مسدد مؤيد دعا إلى الله تعالى فلم يستجب له أحد، وآخر دعا فاستجاب له خمسة فقط، وثالث استجاب له عشرة فقط، وهكذا..

٢- وعن خبّاب رضى الله عنه قال: أتيت النبى، ﷺ، وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟! فقعد وهو مُحْمَر وجهُه، فقال: «لقد كان مَنْ قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[٢].

يخبر رسولنا -ﷺ- أن نفراً ممن كان قبلنا لم يصدهم التخويف ولا العذاب الشديد عن دينهم بل ثبتوا عليه وجاهدوا من أجله حتى لقوا الله تعالى.

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب: ٨/ ١٤٠.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى باب: ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة: ٥/ ٥٦.

٣- عبدالله بن حذافة بن قيس السهمى رضى الله عنه:

وهو صحابى كريم، ثبت فى موقف عظيم، قلَّ أن يثبت فيه إلا الموفقون.

وقد ساق الإمام البيهقى -رحمه الله تعالى- قصته، فذكر أن عمر -رضى الله تعالى عنه- وجه جيشًا إلى الروم وفيهم عبدالله بن حذافة فأسروه، فقال له ملك الروم: تنصَّر أشركك فى ملكى، فأبى. فأمر به فصلب، وأمر برميه بالسهام[1] فلم يجزع، فأنزل، وأمر بقدر فصب فيها الماء، وأغلى عليه، وأمر بإلقاء أسير فيها فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه إن لم يتنصر، فلما ذهبوا به بكى، قال: ردوه، فقال: لم بكيت؟

قال: تمنيت أن لى مائة نفس تلقى هكذا فى الله.

فعجب، فقال: قبل رأسى وأنا أخلى عنك.

فقال: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: نعم، فقبل رأسه فخلى عنهم، فقدم بهم على عمر، فقام عمر فقبل رأسه»[2].

وذكر ابن عساكر تفصيلاً لقصته فيه فائدة فقال:

«وجه عمر بن الخطاب جيشًا إلى الروم وفيه رجل يقال له عبدالله بن حذافة -من أصحاب النبى ﷺ- فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم

(١) أى لغرض تخويفه لا قتله، كما سيأتى فى الرواية التالية.

(٢) ساق القصة عن البيهقى الإمامُ ابن حجر فى «الإصابة»: ٢/ ٢٨٨.

فقالوا: إن هذا من أصحاب محمــد، فقال له الطاغية: هل لك أن تنصر وأشركك فى ملكى وسلطانى؟

قال له عبدالله: لو أعطيتنى جمــيع ما تملك وجميع مملكة العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت.

قال: إذًا أقتلك.

قال: أنت وذاك.

قال: فأمر بــه فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبًــا من يديه، قريبًا من رجليــه، وهو يعرض علــيه وهو يأبى، ثم أمــر به فــأنزل، ثم دعا بقــدر فصب فيها ماء حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فــيها، وهو يعــرض عليه النصرانية وهــو يأبى، ثم أمر به أن يُلقى فيها، فلما ذهب به بكى، فقــيل له: إنه قد بكى، فظن أنه جزع، فقال: ردوه. [فعرض] عليه النصرانية فأبى، قال: فما أبكاك إذًا؟

قــال: أبكانى أنى إن قتلت فــهى نفس واحــدة تلقى الساعــة فى هذه القدر فتــذهب، فكنت أشتهى أن يكون بعدد كل شعــرة فى جسدى نفس تلقى هذا فى الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك؟

قال له عبدالله: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبدالله: فقلت فى نفسى: عدو من أعداء الله فأقبل رأسه يخلى عنى وعن أسارى المسلمين لا أبالى، فدنا منه فقبل رأسه، قال: فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على عمر فأخبر عمر بخبره، فقال: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر فقبل رأسه.

فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبدالله فيقولون: قبلت رأس علج[1]، فيقول لهم: «أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين».

«وفى حديث آخر قال الملك: اتركوه واجعلوه فى بيت ومعه لحم خنزير مشوى وخمر ممزوج، فلم يأكل ولم يشرب، وأشفقوا أن يموت، فقال: أما إن الله -عز وجل- قد كان أحله لى، ولكن لم أكن لأشمتك بالإسلام»[2].

٤- ولما تمكن العبيديون[3] الملاحدة من بلاد المغرب ومصر فعلوا الأفاعيل فى أهلها، لكن نفرًا من الصادقين ثبتوا واحتسبوا، وانظر إلى ما يذكره الإمام الذهبى عن حال الإمام القدوة الشهيد أبى بكر محمد بن أحمد الرملى، والمعروف بابن النابلسى حيث قال له جوهر الصقلى قائد العبيديين:

---

(١) العلج: الرجل من كفار العجم، انظر «لسان العرب»: ع ل ج.

(٢) انظر «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر»: ١٢/١٠٥-١٠٦.

(٣) هم الذين أسسوا الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر، وادعوا زورًا النسب الشريف، وفعلوا الأفاعيل فى بلاد المسلمين، وكان بعض حكامهم كفرة واضح كفرهم كالحاكم حيث ادعى الإلهية والعباذ بالله.

«بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وجب أن يرمى فى الروم سهمًا وفينا تسعة.

قال: ما قلت هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرميكم بتسعة وأن يرمى العاشر فيكم أيضًا، فإنكم غيرتم الملة وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية، فشهره ثم ضربه، ثم أمر يهوديًا فسلخه وحشى تبنًا، وصلب»(١).

٥- وذكر الإمام الذهبى أن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه(٢) أربعة آلاف من عالم وعابد ليردهم عن الترضى عن الصحابة فاختاروا الموت(٣).

وأما التاريخ الحديث فيزخر ويفخر بمئات من المجاهدين المسلمين الصابرين الثابتين على الحق حتى قضوا نحبهم وما بدلوا ولا غيروا، والحديث عنهم يطول لكن حسبى أن أورد ثلاثة أمثلة:

٦- أما الأول فهو: أحمد ساموري توري:

هذا بطل إفريقى اعتنق الإسلام عن يقظة وإيمان، ثم مضى ينشر عقيدته الخالدة فى القبائل الوثنية «فى جنوب السنغال وجاميبيا، وعلى شواطئ نهر النيجر الأعلى وروافده حتى ألف بحجته الباهرة ودليله المقنع أمة إسلامية مؤمنة تهيم بالإسلام عن دراسة واقتناع. .

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ١١٥٩.
(٢) أى العبيديون الملاحدة الذين سبق ذكرهم فى الفقرة السابقة.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٠٨٤.

كافح الإمام فى ميدان الدعوة حتى انتصر، ثم حمل السيف مع شيعته لينازل المستعمرين الفرنسيين حين قدموا إلى بلادهم يحملون الصواعق والقذائف، ويسلطون على الأبرياء الآمنين كوارث العدوان وفظائع الإرهاب، وجعل الإمام الأعزل يجمع الصفوف ويلهب العزائم، ويجمع الذخيرة مما ينهبه من سلاح المعتدين حتى كتب فى سجل النضال صحيفة ناصعة تعبق بأريج العزة وتضىء بنور الإيمان.

لقد التحمت كتائب البطل الباسل بشراذم الفرنسيين فى كفاح مرير ضاق به القائد الفرنسى «أرسيناد»، ومرت ست سنوات ولم يتقدم شبراً واحداً فى ميدانه، ومن قبله قاسى الكولونيل «برنى دى بورى» كؤوس الهزيمة مترعة قاتلة، ورأى المعتدون أن القتال وحده لا يفضى إلى نصر سريع، فأعملوا الحيلة حتى اختطفوا نجل الإمام ليفتوا بذلك فى عضد أبيه، ولكنه قال لمن ساوموه على افتدائه: إن ولدى لن يزيد عن مسلم عادى كهؤلاء الذين تحصدون أرواحهم دون حياء، فإذا كنتم تتوهمون أن اعتقاله سينهى الحرب فقد أسأتم التقدير، ثم واصل جهاده مستميتاً فى الكفاح، ويئس الفرنسيون من النصر السريع فاحتالوا ثانية على اكتسابه، وعمدوا إلى النجل الأسير فاستمالوه بلذائذ النعيم وطرائف الرفاهية، وبعثوا به إلى باريس ليرى البهجة والنضارة، واللذة والعربدة فينتشى بما زين الشيطان من إثم، ويستكين لما أبدع الباطل من خداع، حتى إذا قطع الشوط إلى نهايته ساوموه على مخالفة أبيه والعمل على إنهاء الحرب ليصبح الوالد ملكاً مشمولاً بالحماية الأجنبية، ثم ليكون الابن من بعده

ولىّ العهد وحليف الاستعمار، ورجع الشباب المغرور متحمسًا للخيانة النكراء، وبدأ بالسعى إلى استمالة الضعفاء لوجهته، فأدرك الإمام حقيقة ما كان، والتهبت فى صدره عاطفتان قويتان: عاطفة الأبوة ذات الحنان والسماح، وعاطفة الإسلام ذات القمع للباطل والانتقام للحق، فآثر دينه ووطنه، ثم حكم على ابنه بالإعدام السريع جزاء خيانته ومروقه، وبادر فأوقع الجزاء على رؤوس الأشهاد فى ثقة وإيمان..»(١).

٧- وأما المثال الثانى فهو: الشيخ المجاهد عمر المختار، الذى تربى فى الزوايا السنوسية فى ليبيا، ثم وقف نفسه لنصرة الإسلام والذب عن حياضه، خاصة بعد دخول الإيطاليين ليبيا سنة ١٩١١، حيث جاهد الشيخ الكفار جهاداً عظيمًا قرابة عشرين سنة لم يتوان ولم يتذبذب، بل ثبت ثباتًا عظيمًا مشرفًا، حتى إذا ألقى القبض عليه سنة ١٩٣١ أظهر ثباتًا عظيمًا حال التحقيق معه على أن سنه كان قد جاوز السبعين، لكن ثباته كان مضرب الأمثال.

واستمع أخى القارئ كيف قبض عليه وما جرى بينه وبين الحاكم العسكرى الإيطالى فى ليبيا:

«ذهب - كعادته - فى نفر قليل يقدر بأربعين فارسًا يستكشف العدو ويتفقد مراكز إخوانه المجاهدين، ومر بواد صعب المسالك كثير الغابات، وعلمت به القوات الإيطالية بواسطة جواسيسها، فأمرت بتطويق الوادى،

(١) من مقال للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى بعنوان: «الإسلام فوق كل اعتبار» نُشر فى مجلة الأزهر ٢/ ٣٣: سنة ١٣٨١هـ.

فما شعر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو، ودارت معركة، وعلى الرغم من كثرة عدد العدو واحتياطاته تمكن المجاهدون من خرق صفوفه، ففاجأتهم قوة طليانية أخرى، وكانت ذخيرتهم على وشك النفاد فاشتبكوا فى معركة جديدة قتل فيها جميع من بقى مع المختار، وقتل حصانه أيضًا ووقع عليه، فتمكن من التخلص من تحته، وظل يقاتل وحده إلى أن جرح فى يده، ثم تكاثر عليه الأعداء وغُلب على أمره، وأسروه وهم لا يعرفون من هو، ثم عُرف وأرسل إلى سوسة، ومنها أُركب الطراد «أوسينى» إلى بنغازى حيث أودع اسجن، وعزا المختار فى حديثه عند قدومه إلى بنغازى سبب وقوعه فى الأسر إلى نفاد ذخيرته، وأكد للمتصرف الإيطالى أن وقوعه فى الأسر لا يضعف شيئًا من حدة المقاومة إذ إنه قد اتخذ من التدابير ما يكفل انتقال القيادة من بعده إلى غيره.

وختم المختار قوله بكلمات خالدات لابد أن نلقنها لأبنائنا جيلاً بعد جيل لتكون مثلهم الأعلى فى التوكل على الله والثبات على الحق، فقال إن القبض عليه ووقوعه فى قبضة الطليان إنما حدث تنفيذًا لإرادة المولى عز وجل، وأنه قد أصبح الآن أسيرًا بأيدى الحكومة، فالله -سبحانه وتعالى- وحده يتولى أمره، ثم أشار إلى الطليان وقال: وأما أنتم فلكم الآن وقد أخذتمونى أن تفعلوا بى ما تشاؤون، وليكن معلومًا أنى ما كنت فى يوم من الأيام لأسلم لكم طوعًا»[1].

(١) «القدوة الصالحة»: ١٨٥-١٨٦.

وحدث مرة أن خرج إلى القاهرة من برقة لغرض من أغراض الجهاد فاجتمع إليه مشايخ من قبيلة فى مصر فى قلوبهم ضعف العزيمة ويأس الشيوخ، وجعلوا يحاولون أن يثنوه عن عزمه وجهاده بسبب بلوغه سنَّ الشيخوخة، فغضب وقال لهم: «إن كل من يقول لى هذا الكلام لا يريد خيرًا لى، لأن ما أسير فيه إنما هو طريق الخير، ولا ينبغى لأحد أن ينهانى عن سلوكه، وكل من يحاول ذلك فهو عدو لى»[1].

وأختم بموقف جميل له أثناء التحقيق معه، إذ خاطبه «جرازيانى» قائد الحملة الصليبية الإيطالية فى ليبيا وكان عمر المختار آنذاك ٧٣ سنة.

- هل سمعت ما ينسب إليك من تهم خطيرة؟

- نعم، وسأجيب عنها كلها واحدة واحدة مهما كبرت وخطرت.

وانطلق المختار يقص مأساة ليبيا منذ الاحتلال، والمفاوضات التى دعاه إليها رجال الاحتلال، والوعود الكاذبة والنكث بها، وتكلم عن الظلم والطغيان والاغتصاب وانتهاك الحرمات وتحقير المقدسات..

- هل أنت قائد العصيان ضد إيطاليا؟

- نعم، أنا هو.

- هل حاربت الدولة الإيطالية؟

- نعم حاربتها.

(١) «القدوة الصالحة»: ١٨٨.

- إنى أكرر السؤال عليك فانتبه لنتائجه: هل حاربت الدولة الإيطالية فتناولت السلاح فى وجه قواتها واشتركت فى قتالها فعليًا؟

- نعم، نعم، نعم.

- كم هو عدد المعارك التى اشتركت فيها من سنة ١٩١١[١] حتى اليوم؟

- لا أذكر عددها لأنها كثيرة لا تحصى..

- منذ كم تتولى قيادة العصيان؟

- منذ عشر سنوات.

وعلى هذا المنوال سارت المحكمة كلها...

وكان جرازيانى قد عرض عليه عفوًا شاملاً لقاء أن يكتب للمجاهدين يدعوهم إلى وقف القتال وتسليم أنفسهم وأسلحتهم للحكومة، فرفض المختار قائلاً إن هذا العمل لا يرضى ضميره ودينه[٢].

ثم أعدم بعد ذلك ثابتًا راسخًا مؤمنًا، رحمه الله تعالى ورضى عنه.

٨- وأما المثال الثالث فهو الأستاذ سيد قطب -رحمه الله تعالى- فقد لحق بربه شاهدًا على الطغيان، حيث حاول الظالمون «محاولات جاهدة يائسة للحصول من سيد قطب على موقف تراجع، أو كلمة اعتذار، أو

(١) وهى سنة الاحتلال الإيطالى البغيض.

(٢) «القدوة الصالحة»: ١٨٩-١٩١ بتصرف.

عبارة اعتــراف مما نسب إليه، أو صيغة تأييد. . . وعرضــوا عليه مغريات مادية كثيرة، وساومــوه مساومات عديدة، منوه أن يعطوه كل ما يريد من متع دنياهم، ولكنه اسـتعلى على هذه المغريات. . وآثر أن يذهب إلى ربه شهيدًا عــزيزًا كريمًا، اختار الدار الآخرة الباقية عــلى الدنيا الفانية، وأطلق عبارات تقطر عزة وكرامة، وإيمانًا ويقينًا، وثباتًا واستعلاء، منها قوله:

«إن حُكِمت بحق فأنا أرضى حكم الحق، وإن حُكمت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل.

وقوله:

إن إصبع السبابة الذى يدين لله بالوحدانية فى الصلاة ليرفض أن يكتب حرفًا يقر به حكم طاغية»[1].

ولو ذهبت أستـقصى صور الثبــات على الحق عند المجاهدين المسلمين فى هذا العصر لأتيت بالعجب العُجاب، لكن حسبى ما أوردته مثالاً على ما أردته، وهل الصحوة التى ننعم بها إلا نتاج ذلك الثبات العظيم؟

***

(١) «مدخل إلى ظلال القرآن»: ٢٥.

صور على تراجع الثبات

للشيطان على النفس البشرية مداخل تفعل الأفاعيل فى هدم الثبات[1]، فالموفق من ثبته الله، والمخذول من اتبع الشيطان وحزبه.

قال رسول الله ﷺ: **«إن مما أتخوف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رُؤيت بهجته عليه وكان ردءَ الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك»**، قال: قلت: يا نبى الله! أيهما أولى بالشرك: المرمى أو الرامى؟ قال: **«بل الرامى»**[2].

وما يجدر التذكير به أن تراجع الثبات على نوعين:

النوع الأول: ضعف بشرى يعترى بعض السالكين.

النوع الآخر: نفاق أو ردة تعترى بعض العاملين فيذهب ثباتهم والعياذ بالله.

وقد كان كلا النوعين قائمًا أيام رسول الله ﷺ لكن الغالب أن تراجع الثبات كان لضعف بشري وليس عن نفاق أو ردة، مثل ما حدث لحاطب وأبى لبابة، رضى الله عنهما، وكانت تلك الحوادث محدودة، «وكان أكثرها ينتهى بعودة أصحابها عن خطئهم، ومبادرتهم إلى التوبة والإنابة

(١) سيأتى ذلك بالتفصيل -إن شاء الله تعالى- فى مبحث قادم.

(٢) ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- أن هذا الحديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، وذكر أن إسناده جيد، انظر «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٥٠٩.

من غير إصرار على موقف أو استمرار فيه، وكان يتجلَّى من خلالها صفاءُ السريرة، وسلامة المقصد، وأصالة المعدن، والحرصُ على وحدة الصف والتزام الجماعة، كما كان يظهر كذلك مظهر آخر من مظاهر العافية يتجلى فى إنكار الجماعة المسلمة كلها لموقف الخارجين على الجماعة، وفى هذا ما فيه من عقوبة رادعة ومانعة من انتشار الظاهرة»[1].

من صور عدم الثبات على الحق

١- قصة بَلْعام بن باعوراء:

وقصته قد وردت فى كتب التفاسير والسير، وهى طويلة معدودة -فى تفاصيلها- من الإسرائيليات، لكن خلاصة أمره الذى ذكره بعض السلف كابن عباس وابن مسعود -رضى الله عنهم- أنه رجل من علماء بنى إسرائيل يعلم اسم الله الأعظم، وكان مقيمًا فى بيت المقدس مع الجبارين، وكان مجابَ الدعوة يقدمه قومه فى الشدائد، ثم جرى له مع موسى عليه الصلاة والسلام حوادث انسلخ على إثرها من دينه -والعياذ بالله تعالى- وكان ذلك من أثر الشيطان فى نفس بلعام الضعيفة الخائرة، قال الله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ**﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦][2].

(١) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٤٢.

(٢) وانظر تفاصيل قصته فى «تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٠٧- ٥١٣.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«شبه سبحانه من آتاه كتابه وعلَّمه العلم الذى منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوقَ على الخالق، بالكلب الذى هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا، وأخسِّها نفسًا... وأشدّها شَرَهًا وحرصًا.. وفى تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب فى حال لهثه سرٌّ بديع، وهو أن هذا الذى حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها...»[1].

٢- عُبيد الله بن جحّش:

كان قد أسلم قديمًا، وهاجر مع زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان - رضى الله عنها- إلى الحبشة الهجرة الثانية، فتنصَّر وارتدَّ عن الإسلام، وتوفى بأرض الحبشة. وقد حكت أمُّ حبيبة قصةَ زوجها عُبيدِ الله بن جحش فقالت:

«رأيت فى النوم عُبيد الله بن جحش -زوجى- بأسوأ صورة وأشوهها، ففزعت فقلت: تغيَّرت -والله- حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة: إنى نظرت فى الدين فلم أر خيرًا من النصرانية، وكنت قد دِنت بها ثم دخلت فى دين محمد، ثم رجعت إلى النصرانية،

(١) «إعلام الموقعين»: ١/ ١٦٥- ١٦٦.

فقلت: والله ما خيرٌ لك، وأخبرته بالرؤيا التى رأيت له فلم يَحْفَل بها، وأكبَّ على الخمر حتى مات»[1].

٣- الرَّحَّال بن عُنْفُوة:

وفد على النبى ﷺ فى وفد بنى حنيفة ومعهم مسيلمة، فأتى رسول الله ﷺ فى رجال معه فأسلم وتشهد شهادة الحق، وأقام أيامًا يختلف إلى رسول الله -ﷺ- وكان يتعلم القرآن من أبىّ بن كعب، ثم انقلب إلى بلده وادَّعى مسيلمة الكذاب -لعنه الله- النبوة، وشهد له الرحّال بن عُنْفُوة كذبًا أن النبى -ﷺ- أشركه فى الأمر، فافتتن الناس به[2]، وكانت تلك ردةً من الرّحال بن عُنْفُوة، ومات قتيلاً على الكفر -والعياذ بالله تعالى -بعد ذلك فى حروب الردة.

٤- النعمان بن محمد المغربى، قاضى الدولة العُبيدية:

قال الذهبى: «كان مالكيًا فارتد إلى مذهب الباطنية، وصنف لهم أُسَّ الدعوة، ونبذ الدين وراء ظهره، وألَّف فى المناقب والمثالب[3]، وردَّ على أئمة الدين، وانسلخ من الإسلام فسحقًا له وبعدًا، ونافق الدولة، لا بل وافقهم. . . وله يد طُولى فى فنون العلم والفقه والاختلاف، ونَفَس طويل فى البحث، فكان علمه وبالاً عليه»[4].

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد: ٤/٩٦- ٩٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى: ١/٣١٦- ٣١٧.

(٣) أى مساوئ الصحابة، بزعمه، قبّحه الله.

(٤) انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ١١٦٠.

٥- ابن السقّاء:

كان من الطلبة الذين يحضرون حِلق العلم، وكان مقرئًا مجودًا، حافظًا للقرآن، فحضر يومًا حَلْقة شيخ الإسلام أبى يعقوب الهمذانى[١] فقام وآذى الشيخ، «وسأله عن مسألة، فقال: اجلس، إنى أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير الإسلام، فاتفق أن ابن السقّاء ذهب فى صحبة رسول طاغية الروم وتنصّر بقسطنطينية»[٢].

ورؤى فى القسطنطينية مريضًا على دكّة فسُئل: هل القرآن باقٍ على حفظك؟ قال: ما أذكر منه إلا آية واحدة: ﴿**رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ [الحجر: ٢]، والباقى نسيته[٣]، نعوذ بالله من المكر.

٦- المنصور علىّ بن أيبك:

مُلِّك على المماليك بعد وفاة أبيه، وكان عمره خمسة عشر عامًا، ثم لم يلبث أن عُزل، وتملك المظفّر قطز، فذهب المنصور علىّ هذا إلى القسطنطينية وتنصّر هنالك -والعياذ بالله- وعاش بها طويلاً ورزق أولادًا نصارى، وسمَّى نفسه ميخائيل.

(١) يوسف بن أيوب بن يوسف شيخ مرو وعالمها، توفى سنة ٥٣٥، انظر ترجمته فى «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٦٦- ٦٩.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٣/١٤٠٣- ١٤٠٤.

(٣) المصدر السابق.

قال الإمام الذهبى رحمه الله تعالى:

نعوذ بالله من الشقاء، فهذا بعد سلطنة مصر كفر وتعثر[1].

٧- عبدالله القصيمى:

وهذا مثال من المُحْدثين الزائغين، الذين ضلوا بعد هداية، وزاغوا بعد استقامة، وهو رجل قد «نال من العلم كثيرًا، وبرع فيه خاصة علم العقيدة[2]، وأثنى عليه معاصروه، وجرد قلمه فى الرد على مخالفى أهل السنة والجماعة، وعلى القادحين فى الإمام محمد بن عبدالوهاب، فرد على الدجوى[3] فى كتابه «البيارق النجدية» وألف كتابه: «الفصل الحكم بين الوهابيين ومخالفيهم»، وله كتاب عن الوثنية..

قال عنه معاصروه: إننا لم نره قط إلا وقد تأبط كتابًا، وكان مولعًا بقراءة صحيح البخارى»[4].

ثم إنه ارتدَّ -والعياذ بالله تعالى- عن الإسلام، وانتكس انتكاسة الأبد، وقد ذُكر فى ذلك أسباب قلبية كالحسد والمبالغة فى الثناء على النفس[5]، والقلوب بيد الله تعالى.

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٥٩٥.

(٢) أى العلم الظاهر الذى لا يؤثر على سلوك صاحبه تأثيرًا عاصمًا من الضلال والعياذ بالله، أما من تمكن فى العلم، وسلك سلوك المتقين بنفس خاشعة مسلمة إلى مولاها فإنه لا يزيغ بإذن الله زيغًا يؤدى به إلى الكفر، والعياذ بالله.

(٣) هو أحد شيوخ الأزهر.

(٤) «من أخبار المنتكسين»: ٢٣٠.

(٥) «من أخبار المنتكسين»: ٢٣٠- ٢٣١.

وانظر كتاب «ليلة فى جاردن سيتى» للشيخ أبى عبدالرحمن بن عقيل الظاهرى ففيه بعض أخبار ذلك الهالك.

وقد بلغنى أنه قد مات عن قريب، فإن مات على ما كان عليه بعد ردته فقد خسر خسارة الأبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

٨- أمل دُنْقُل:

نشأ فى بيت علم، وكان والده من الصالحين؛ علَّمه القرآن، ثم إن أملاً هذا أمَّ -حال شبابه- بالناس، وخطب بهم بعض جمع، ثم إنه انتكس وصار حداثيًا ملتزمًا بذلك المذهب الأدبى الضال، وأصبح متسكعًا فى المقاهى، معاقراً بنت الحان -الخمر- وسقط فى وحل المخدرات، وتلبسته أمراض معضلة مات على إثرها ضالاً، والعياذ بالله تعالى.

وكان بذىء اللسان، سيئ الأخلاق، ولا حول ولا قوة إلا بالله(١).

وإليك أخى القارىء نبذًا من بذاءاته وشطحاته الكفرية: «المجد للشيطان معبود الرياح. من قال لا فى وجه من قالوا نعم(٢). من علَّم الإنسان تمزيق العدم. من قال لا فلم يمت(٣). خصومة قلبى مع الله ليس سواه»(٤).

«حاذيتُ خَطو الله: لا أمامه ولا خلفه»(٥).

وهنالك أمثلة أخرى -أخى القارئ- على تراجع الثبات سترد فى مبحث قادم: عوامل هدم الثبات، إن شاء الله تعالى.

---

(١) تلك الأخبار مروية عن زوجه عبلة الروينى فى كتابها: «الجنوبى: أمل دنقل».

(٢) يشير إلى رفض الشيطان السجود لآدم.

(٣) يشير إلى أن إبليس لما رفض السجود خُلد فى الدنيا.

(٤) «أمل دنقل: الأعمال الشعرية الكاملة»: ٣٤٤.

(٥) المصدر السابق: ١٨٠.

عوامل بقاء الثبات

لله جنود تثبت العبد وتأخذ بيده إلى خيرى الدنيا والآخرة، ومن هذه الجنود:

١- الدعاء:

وهو السلاح الأمضى، والعامل الأقوى، وله فعله فى النفوس، يثبتها ويقوّمها، وحسبك أن النبى ﷺ كان يكثر من الدعاء بالثبات ويعلمه أمته، فمن تلك الأدعية:

أ- **«اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد»**(١).

ب- «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»(٢).

ج- «يا ولى الإسلام وأهله ثبتنى به حتى ألقاك»(٣).

د- **«اللهم رب جبريل وميكائيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون،**

(١) قال الإمام الهيثمى: أخرجه الإمام الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه موسى بن مطير، وهو متروك، انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ١٧٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وإسناده حسن، كما ذكر الإمام الهيثمى فى «مجمع الزوائد»: ١٠/ ١٧٨.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات كما ذكر الإمام الهيثمى فى «مجمع الزوائد»: ١٠/ ١٧٨.

اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

قال الإمام النووى:

قوله ﷺ: «اهدنى لما اختلف فيه من الحق...» معناه ثبتنى عليه، كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٢].

هـ- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ يدعو يقول:

«رب أعنى ولا تُعِن علىَّ، وانصرنى ولا تنصر علىَّ، وامكر لى ولا تمكر علىَّ، واهدنى ويسِّر لى الهدى، وانصرنى على من بغى علىّ، رب اجعلنى لك شكارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أوَّاهًا منيبًا، رب تقبل توبتى، واغسل حوبتى[٣]، وأَجب دعوتى، وثبت حجتى، وسدد لسانى، واهد قلبى، واسلل سخيمة[٤] صدرى»[٥].

و- وانظر إلى هذا الحديث المهم فى هذا الباب:

عن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين! ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ، إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه:

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب صلاة المسافر وقصرها: باب صلاة النبى ﷺ ودعاؤه.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووى»: ٦/ ٣٩١.

(٣) الحَوْب: الإثم، وانظر «لسان العرب»: ح و ب.

(٤) السخيمة: الغش والغل والحقد. وانظر «لسان العرب»: س خ م.

(٥) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ١١٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك. قالت: قلت: يا رسول الله، ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك؟ قال: «**يا أم سلمة. إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ**»، فتلا معاذ[1] قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ [آل عمران: ٨][2].

وقد قال الله -تعالى- معلمًا المؤمنين الدعاء بالثبات:

﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨].

﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقال سبحانه مثنيًا على الثابتين: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦- ١٤٨].

وقال تعالى فى الحديث القدسى:

---

(١) هو أحد الرواة فى سند الحديث.

(٢) الحديث أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: أبواب الدعاء عن رسول الله ﷺ: الباب ٩٥، وقال: هذا حديث حسن.

«يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم»[1]، أى ادعونى بطلب الهداية والثبات عليها.

٢- تدبر القرآن:

القرآن العظيم مصدر تثبيت وهداية، وذلك لما فيه من قَص قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولما فيه من ذكر مآل الصالحين، ومصير الكافرين والجاحدين والمعاندين، ولما فيه -أيضًا- من ذكر تثبيت الله لرسله وأوليائه بأساليب متعددة. فالقارئ للقرآن العظيم بتدبر وإيمان يرزقه الله تعالى الثبات ويهديه طريق الرشاد، وهاك أخى القارئ بعضًا من تلك الآيات الكريمات:

قال الله تعالى:

١- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

٢- ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٠].

٤- ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم.

٥- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: ٣٢].

٦- ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ [الحج: ١١].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وقد قال النبي ﷺ: «... إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبدًا»[١].

٣- حسن الصلة بالله تعالى:

فالله تعالى: ﴿ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. انظر «مجمع الزوائد»: ١/ ١٧٤.

والله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال عز من قائل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ كنز عظيم، من وفق لمظنته(١) وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغنى عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].، فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أُمر

(١) أى لمكان وجود ذلك الكنز.

به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسنَ فعلاً كان أعظم تثبيتًا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهى أعظم ما يثبت الله بها عبده فى الدنيا والآخرة.. فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه فى قبورهم ويوم معادهم.. وقد جاء هذا مبينًا فى أحاديث صحاح»[1].

وقال سيد رحمه الله تعالى:

«يثبت الله الذين آمنوا فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، بكلمة الإيمان المستقرة فى الضمائر، الثابتة فى الفِطَر، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقى فى الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول، وبوعده الحق بالنصر فى الدنيا والفوز فى الآخرة، وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب»[2].

(١) «إعلام الموقعين»: ١/ ١٧٦-١٧٧.

(٢) «فى ظلال القرآن»: نقلا عن: «من ركائز الدعوة» للهلالى: ٢٢٢.

وقال تعالى: ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

فالله -إذاً- هو المثبت والهادى لأوليائه، وهو المضل المقلق لأعدائه سبحانه وتعالى.

وحسن الصلة بالله تعالى لها صور كثيرة دالة عليها، مثل ذكر الله تعالى كثيرًا، وجميل التوكل عليه، وكمال الإنابة إليه، واستشعار معيته، والرغبة فيما عنده، والخوف منه والخشية سبحانه وتعالى، وهناك كثير من جوانب الإسلام ينتظمها حسن الصلة بالله تبارك وتعالى.

وانظر إلى ما حدث بين أبى سفيان -رضى الله تعالى عنه- وبين هرقل من محاورة طويلة وَرَدَ فيها كلامٌ جميلٌ متعلق بالثبات وذلك حين سأل هرقل أبا سفيان:

«فهل يرتد أحد منهم[1] سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب»[2].

(١) أى من أصحاب النبى ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: مقدمة الكتاب: ١/ ٥ وما بعدها.
والمعنى: يشرح الإيمان القلوب التى يدخل فيها. انظر: «فتح البارى»: ١/ ٧٦.

فمن فهم الإسلام وحسنت صلته بالرحمن لا يمكن أن يرتد عن دينه أبدًا إلا أن يشاء الله.

٤- التثبيت من قِبَل الصالحين:

وهذا من أعظم الأمور المساعدة على الثبات؛ إذ الصالحون يراقب بعضهم بعضًا، فإن ضعف أحدهم أو انحرف هبوا لمساعدته والوقوف بجانبه.

وقد قال رسولنا ﷺ:

«المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«الدين النصيحة». قلت: لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»**[٢].

وإليك أخي القارئ بعض الصور والأحداث الدالة على أهمية تثبيت المسلم لأخيه وشد أزره.

أ- قال الله تعالى قاصًا كلام موسى عليه الصلاة والسلام:

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب: في النصيحة والحياطة: ٤/ ٢٨٠: رقم ٤٩١٨.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة: ١/ ٧٤- ٧٥ رقم ٥٥.

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه: ٢٩-٣٤].

ب- وقد جرت حادثة عظيمة أيام رسول الله ﷺ، وقد لطف الله بالمسلمين إذ ثبتهم برسوله، ﷺ، على الحق فثبتوا:

قال ابن إسحاق:

«مرَّ شاس بن قيس[١] -وكان شيخًا قد عسا[٢]، عظيمَ الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم -على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فقال: قد اجتمعَ ملأ بنى قيلة[٣] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بُعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج... ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من

(١) أحد يهود المدينة.

(٢) أى أسن وكبر.

(٣) أى الأنصار، وكانوا ينسبون إلى أمهم قيلة.

الجيين على الـركب. . . فتقاولا، ثم قال أحـدهما لصاحبـه: إن شئتم رددناها الآن جذعة[١]، فغـضب الفريقان جـميعًـا وقالوا: قـد فعلنا، مـوعـدكم الظاهرة -والظاهرة: الحـرة- السـلاح السـلاح، فخـرجـوا إليها[٢].

فبلـغ ذلك رسول الله -ﷺ- فخـرج إليهم فـيمن مـعه من أصـحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمـين! الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعـد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم بـه، وقطع به عنكم أمر الجاهليـة، واستنقذكم به من الكفـر، وألف به بين قلوبكم**» فعرف القـوم أنها نزغة من الشيـطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعـانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس»[٣].

فانظر أخي القـارئ كيف ثبت رسول الله -ﷺ- الأنصار، وحـماهم الله تعالى برسوله -ﷺ- من فتنة هوجاء.

وفي التـاريخ الإسلامي حادثـتان جمـيلتان صـالحتـان لهذا السـياق، مأثورتان عن الملهم المحدث الفاروق عمر، رضي الله تعالى عنه:

---

(١) أي رددنا ما كان قد حصل من المعركة مرة أخرى.

(٢) أرأيت أخي القـارئ كـيف حرش اليـهـودي بين المسلمين، وهذا ديدنهم في كل زمـان ومكان.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٥٥٥- ٥٥٧.

جـ- أما الحادثة الأولى فقد ساقها الإمام ابن كثير فى ثنايا تفسير قول الله تعالى: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ [غافر: ٣] فقال:

«عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه، وأن يتوب (الله) عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب [شديد العقاب]، قد حذرنى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع[١]، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زل زلة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه»[٢].

(١) قال محقق التفسير: هذا أسلوب تمثيل، ففيه تصوير من رجع إلى الشريعة، يأخذ منها، بمن ينزع الدلو من البئر -أى: يجذبها- فيحسن النزع.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٧/ ١١٨.

د- أما الحادثة الأخرى فقد ذكر ابن إسحاق أن عمر بن الخطاب، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى خرجا حتى قدما المدينة «فحدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاصى بن وائل السهمى التناضب[1] من أضاة[2] بنى غفار، فوق سرف[3]، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد أذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال: فقال: أبر قسم أمى، ولى هنالك مال فآخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما. قال: فأبى على إلا أن

(١) قال محقق السيرة: «التناضب»، يقال: هو اسم موضع، ومن رواه بالكسر؛ فهو جمع تنضب وهو شجرة، واحدته تنضبة.

(٢) قال محقق السيرة: أضاة بنى غفار: على عشرة أميال من مكة.

(٣) قال محقق السيرة: سرف: موضع على ستة أميال من مكة.

يخرج معهما؛ فلما أبى إلا ذلك؛ قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتى هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يابن أخى، والله لقد استغلظت بعيرى هذا، أفلا تُعقبنى على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثتنى به بعض آل عياش بن أبى ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارًا موثقًا، ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

قال ابن إسحاق: وحدثنى نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر فى حديثه، قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا ولا عدلا ولا توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم، وفى قولنا وقولهم لأنفسهم، **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾** [الزمر: ٥٣-٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصى قال: فقال هشام بن العاصى: فلما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى[1]، أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها. قال: فألقى الله تعالى فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا.

قال ابن هشام: فحدثنى من أثق به: أن رسول الله ﷺ قال، وهو بالمدينة: من لى بعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاصى؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، فقدمها مستخفيًا، فلقى امرأة تحمل طعاما، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين -تعنيهما- فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور عليهما، ثم أخذ مروة[2] فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه: «ذو المروة» لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما، فعثر فدميت أصبعه، فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة»[3].

---

(١) قال محقق السيرة: موضع بأسفل مكة.

(٢) قال محقق السيرة: المروة: الحجر.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/٤٧٦.

هـ- وهذه صورة أخرى على التثبيت من قبل الصالحين جرت زمان الإمام أحمد، رحمه الله تعالى فى الفتنة التى تعرض لها:

قال أبو جعفر الأنبارى:

«لما حُمل أحمد إلى المأمون أُخبرتُ فعبرتُ الفرات، فإذا هو جالس فى الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر: تَعَنَّيْت[1]، فقلت: يا هذا: أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبنَّ خلقٌ، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت لابد من الموت، فاتق الله ولا تُجب، فجعل أحمد يبكى ويقول: ما شاء الله، ثم قال: يا أبا جعفر، أعد علىَّ، فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله»[2].

و- ومما يجرى المجرى نفسه ما ذكره الذهبى أن الإمام أحمد قال:

«لست أُبالى بالحبس ما هو ومنزلى إلا واحد، ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، فسمعه بعض أهل الحبس فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقى، فكأنه سُرِّى عنه»[3].

(١) أى تعبت.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٢٢.

(٣) المصدر السابق.

ز- وقال له محمد بن نوح:

«يا أبا عبد الله: اللهَ اللهَ، إنك لست مثلى، أنت رجل يُقتدى بك، قد مدَّ الخلق أعناقهم إليك لِما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله»[(١)].

ح- وهنالك مثال جميلٌ من تاريخنا الإسلامى حدث أيام محنة القول بخلق القرآن، حيث دُعى الإمام الحافظ عَفَّان بن مسلم للقول بخلق القرآن فأبى، وإليك أخى القارئ ما جرى له:

قال إبراهيم بن ديزيل:

«لما دُعى عفان للمحنة كنت آخذًا بلجام حماره، فلما حضر عُرض عليه القول، فامتنع أن يجيب، فقيل له: يُحبس عطاؤك -وكان يُعطى فى كل شهر ألفَ درهم -فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فلما رجع إلى داره عذله نساؤه ومَن فى داره- وكان فى داره نحو أربعين إنسانًا -فدق عليه داقٌ الباب، فدخل عليه رجلٌ شبهته بسمّان أو زيات، ومعه كيس فيه ألف درهم، فقال: يا أبا عثمان، ثبتك الله كما ثبّت الدين، وهذا فى كل شهر»[(٢)].

ط- تثبيت القاضى الفاضل[(٣)] صلاحَ الدين الأيوبى:

(١) المصدر السابق.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٦٢.

(٣) هو الشيخ عبد الرحيم بن على بن حسن اللخمى الشامىّ البيسانى، توفى سنة ٥٩٠ - رحمه الله تعالى- فى مصر: انظر ترجمته فى «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٣٨ وما بعدها.

كان صلاح الدين الأيوبى محاصراً الصليبيين فى عكّا ثلاث سنين متصلة، فى أحوال عصيبة، وقوارعَ مخيفة[١]، وكان وزيره القاضى الفاضل مرافقًا ابن صلاح الدين الوالى على مصر من قبل أبيه، فافتقد صلاح الدين أهم عضد له ونصير ألا وهو القاضى الفاضل -كما هو معروف من سيرتهما- لكن القاضى الفاضل كان يُرسل لصلاح الدين رسائل رائعة من مصر يثبته ويقوى عزمه، وكان صلاح الدين يبثه همومه وآلامه، وكانت تلك الرسائل من أجمل وأحسن وأبلغ رسائل التثبيت، وإليك -أخى القارئ- بعضها:

كان صلاح الدين -رحمه الله تعالى- قد استبطأ النصر، فأرسل إليه القاضى الفاضل -رِحمه الله تعالى- قائلاً:

«إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدوّنا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحد إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يرجُ إلا ربه، ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذى يُعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذين ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله -سبحانه- من ذنوبنا فلولا أنها مسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن فى الطريق عائق، خار الله لمولانا فى القضاء السابق واللاحق».

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب «مختصر الروضتين فى أخبار الدولتين»: ٢٧٩- ٣٤٧.

ومن كتاب آخر:

«وعسكرنا لا يشكو -والحمد لله- منه خورًا، وإنما يشكو منه ضجرًا، والقوى البشرية لابد أن يكون لها حدّ، والأقدار الإلهية لها قصد، وكل ذى قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فى شكر المسارع من أبطاله، قال الله -تعالى-: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يا مولانا: أليس الله -تعالى- اطَّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يُسهل ولم يستعمل ولم يستخدم فى إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه إلا أنت، هذا وفى الأرض من هو للنبوة قرابة، ومن له المملكة وراثة، ومن له فى المال كثرة، ومن له فى العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكسَّلهم ونشَّطك، وقبضهم وبسطك، وحبب الدنيا إليهم وبغَّضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسيرك: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

نعم وأخرى أهم من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ما تأخر منهم متأخر ولا استبعد المسافة بينك

وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لا أموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم، مُهطعين[١] إلى الداعى، ساعين فى أثر الساعى، وهم من كل حدب ينسلون[٢]، ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يا مولانا -كما قيل- أبقاك الله:

ولست بملك هازم لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعدة إلا بدعوة، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهمّ، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشترى منهم الخطوات شبرًا بذراع، وذراعًا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة كأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لا نتباعد عن المنزلة، وآخر: لم لا نميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ما كان فيه حظ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلى عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة[٣]، وما كأنها طليعة الجيش ولا خرزة السلك إن وهت تداعى السلك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف

(١) أى مسرعين: وانظر «لسان العرب»: هـ ط ع.
(٢) أى من كل مرتفع من الأرض يظهرون: وانظر «لسان العرب»: ح د ب.
(٣) أى نهاية الجهاد مع الكفار.

المخذّل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور

قليل التشكى للمهم نصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، وما مراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسره عليه، وحببه إليه، فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هى داؤه، ومرحوم من بلوى هى دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لا يتغير لمولانا -أبقاه الله- وجه عن بشاشة، ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا تُرى منه ضجرة، ولا تُسمع منه نهرة، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يُحدث استمرار النعم لمولانا -عز نصره- بطرًا فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجرًا، والمملوك يستحسن بيتى حاتم، ومولانا -أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه- يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يومًا وبالغنى ... وما منهما إلا سقانا به الدهر

فما زادنا بغيًا على ذى قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

والمملوك بأن يسمع أن مولانا -عز نصره- على ما يعهده من سعة صدره أسرُّ منه بما يسمعه من بشائر نصره، وياليتنى كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيبًا من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سماع

الأخبار، أو غُرمًا يمكن خُلفه من الوفْر[1] فقد غرمنا فى بُعد مولانا ما لا خُلف له من العمر، أو مرض جسم فخيره ما كان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر:

«قيل للمهلب[2]: أيسُرُّكَ ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز.

ولابدّ أن تنفذ مشيئة الله فى خلقه، ولا رادَّ لحكمه فلا يتسخط مولانا بشىء من قدره، فلأن يجرى القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجرى وهو ساخط موزور، من شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى واستغاث بقادر، ومن دعا ربه خفيًا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التى لا تشتدّ إلا به، ولا يُضيّق صدورًا لا تنفرج إلا منه، وما شرد الكرى[3]، وأطال على الأفكار ليل السُّرى[4] إلا ضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يُدَبِّرُ الدهر إلا برب الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنه لا يقلّ الهم إن كثر الفكر.

(١) الوفر: المال الكثير: وانظر «لسان العرب»: و ف ر.

(٢) هو المهلب بن أبى صفرة القائد المعروف.

(٣) أى النعاس والنوم: وانظر «لسان العرب»: كرا.

(٤) السُّرى: سير عامة الليل: وانظر «لسان العرب»: سرى.

قــد قلت للرجل المقسَّم أمــرهُ   فــوض إليــه تنم قــرير العــين

وكل مقتــرح يجاب إليه إلا ثغرًا يصير نصــرانيًا بعد أن أسلم، أو بلدًا يخرس فيــه المنبر بعد أن تكلم، يا مولانا: هذه الليالى التى رابطت فــيها والناس كارهون، وسهــرت فيها والعيــون هاجعة، وهذه الأيام التى ينادى فيها: يا خيل الله اركبى، وهذه الساعات التى تزرع الشيب فى الرؤوس، هى نعمة الله عليك، وغراسك فى الجنة: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾ [آل عمران: ٣٠] وهى مــجوَّزاتك على الصراط، وهى مثقــلات الميزان، وهى درجات الرضــوان، فاشكر الله عليها كــما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر.

من ربط جأش أمــير المؤمنين عمــر بن الخطاب -رضى الله عنه- قوله: «لو كان الصــبر والشكر بعيــرين ما باليت أيهــما ركبت»، وبهــذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع فى اللحــاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله فى القيام بالحق إلا خيــر الخلق، وقد عرف ما جرى فى سيــر الأوّلين، وفى أنباء النبيين، وأن الله -تعالى- حــرض نبيه ﷺ على أن يهتدى بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدى بأولى العزم منهم.

وما ابتلى الله -سبحانه- من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعــضها بعــضًا وكــأنَّ ما قد كــان لم يكن، ويذهب التعــب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى همًا يضعف به جــسمه، ويضر مــزاجه، والأمَّة بنيان وهو -أبقــاه الله تعالى- قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة فى نصرة الحق.

ومما يستحسن من وصايا الفرس: «إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة -والعياذ بالله- فلا تجزع»، ورب واقع فى أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

هذا سلطان هو -بحول الله- أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلاً على قوة إلا على قوته فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر فى موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلى: أنت المعافى، وليرض عن الله -سبحانه- فإن الراضى عن الله هو المسلم الراضى».

وكتب السلطان إلى القاضى الفاضل كتابًا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من أمارات النصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها. فكتب إليه الفاضل:

«فأما قول المولى: إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفى عنها بهذه الساعات وعفيت[1]، فيكفى مستغفرًا لسان السيف الأحمر فى الجهاد، ويكفى قارعًا لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفى سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت فى منهاجك،

(١) أى زالت وذهبت: وانظر «لسان العرب»: ع ف ى.

وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شُغلت»[1].

تلك كانت أمثلة مضيئة على تثبيت الصالحين بعضهم بعضًا فى المواقف الصعبة حتى لا يزلّوا أو يتراجعوا، وهكذا ينبغى أن يُفعل فى أوقات الشدائد.

وتثبيت الصالحين بعضهم بعضًا أمر مهم، إذ للشيطان على الإنسان مداخلُ كثيرة، قد يتحصن الإنسان من بعضها أو أكثرها، ويدلف الشيطان من بعضها الآخر، وقد يجتمع على الإنسان من المؤثرات النفسية والحسية ما لا قبل له به فيزل أو يضعف، لذا كان واجبًا على العقلاء أن يُذكِّروا ذلك الشخص المعرّض للفتن بمسيرته الأولى، وهمته السالفة، وجهده القديم، فيكونوا عونًا لأخيهم ورحمةً له.

٥- صحبة الصالحين:

ومضمون هذه الفقرة أعم من مضمون سابقتها؛ حيث إن الفقرة السابقة تحدثت عن التثبيت من قِبَل الصالحين، سواء أحدث ذلك التثبيت من جرّاء صحبة أم لا، أما هذه الفقرة فتتحدث عن صحبة الصالحين مطلقًا، وأثرها فى الثبات.

هذا وإن من خير وسائل الثبات الصلةَ الحسنة بالصالحين وصحبتهم، والبعد عن الطالحين وعدم مرافقتهم ابتداءً أو تجديدًا، فإن عددًا ممن صَلُح

(١) أثبتُّ أكثر ما قاله القاضى الفاضل -رحمه الله تعالى- لما فيه من المعانى الرائعة المثبتة على الجهاد.

شأنه انتكس بسبب حنينه إلى رفاق السـوء وإعادة الصلة بهم، أو التعرف إلى أصحـاب سوء يمنونه ويضلونـه، والله تعالى قد حـذرنا من صحـبة السوء فقال قاصًا ندمَ أصحاب السوء على صحبتهم:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

ولهذه الآية قصة مناسبة لهذا المـقام، فعن ابن عباس رضى الله عنهما «أن أبا مـعـيط كـان يجلس مع الـنبى ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكـان رجـلاً حليمًـا، وكان بقية قريش إذا جلـسوا معه آذوه، وكان لأبى مـعيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قـريش: صبأ أبو معيط[1]، وقدم خليله[2] من الشام ليلاً، فقـال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليـه؟ فقالت: أشد مما كان أمرًا، فـقال: ما فعل خليلى أبو معـيط؟ فقالت: صبـأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحيـاه فلم يرد عليه التحية، فقال: مالك لا ترد علىّ تحيتى؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟ قال: أوَقد فعلتها قريش؟ قال: نعم، قال: فـما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟ قال: تأتيه فى مجلسه، وتبصق فى وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم، ففـعل، فلم يزد النبى ﷺ أن مسح وجـهه من البـصاق، ثم التـفت إليه فقال: **إن وجدتك خارجًا من جبال مكة أضربْ عنقك صبرًا**.

(١) أى كفر بالأصنام ودان بالإسلام.

(٢) قيل: هو أبى بن خلف.

فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: اخرج معنا، قال: قد وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجًا من جبال مكة أن يضرب عنقى صبرًا، فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدْرَك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين وَحَلَ به جمله فى جُدَد من الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ أسيرًا فى سبعين من قريش، وقُدم إليه أبو معيط، فقال: تقتلنى من بين هؤلاء؟ قال: نعم، بما بصقت فى وجهى. فأنزل الله فى أبى معيط: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً**﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩][1].

وقال الإمام ابن كثير:

«وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم... فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلاً: ﴿**يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً**﴾ يعنى مَن صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلالة، وسواء فى ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبى بن خلف أو غيرهما»[2].

(١) قال الإمام السيوطى فى هذا الأثر: أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح، انظر «الدر المنثور»: ٦/ ٢٥٠.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ١١٦.

أما صحبة الصالحين ففيها خير عظيم لما تورثه من ثبات على الطريق، ومكث على الهداية، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى أن كل العلائق بين الأصحاب مقطوعة يوم القيامة لا فائدة فيها، ولا يشفع أصحابها بعضهم لبعض إلا علائق المتقين الصالحين، فقال جلّ مِن قائل: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومن الأمور التى يجب التنبه إليها هو وجوب قطع المرء المهتدى صلتَه بأصحابه السابقين أهل الغواية والضلال لئلا يحنّ إلى ما كان عليه، ولازم صحبة الصالحين الأخيار الابتعاد عن الأشرار الفجار:

«لقد كان الرجل حين يدخل فى الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية، كان يشعر فى اللحظة التى يجىء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهدًا جديدًا، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى الجاهلية، وكان يقف من كل ما عهده فى جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذى يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام، وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْىَ الإسلام الجديد...

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم فى جاهليته وحاضره فى إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة فى صلاته بالمجتمع الجاهلى من حوله وروابطه الاجتماعية...»[(١)].

(١) «معالم على الطريق»: ١٩- ٢١.

وكثير من العاملين للإسلام يغفل عن هذا فيختلط بأهل الباطل ممن كان صحبهم قديمًا، أو أنه ينشئ علاقة جديدة معهم، وقد ينتكس -والعياذ بالله- من جراء حنينه لما هم عليه من اللهو والباطل، ولذلك «لا تستقيم قيم الإسلام فى نفوسنا، ولا يتضح تصور الإسلام فى عقولنا، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذى أنشأه الإسلام أول مرة»[1].

ولا يتنافى هذا مع دعوة المنحرفين إلى الرشد والصلاح؛ فإن الحديث هنا عن صحبة المنحرفين واتخاذهم أولياء وبطانة، أما المكث معهم لأجل دعوتهم مع الالتزام بآداب الدعوة وشرائطها فإن مثل هذا العمل من أعظم القربات، والله أعلم.

٦- التربية الصحيحة:

الثبات دليل على حسن التربية، والتذبذب والتراجع دليل على سوء التربية، وضعف اليقين، وقلة الزاد «ويبرز هذا بشكل واضح وجليّ ودائم فى حياة القادة الإداريين الذين يتولون الشئون السياسية والاجتماعية مما يجعلهم مقطوعى الصلة بالتربية والشئون التربوية، نظريًا وعمليًا، وبالتالى يجعل علاقاتهم واجتماعاتهم وممارساتهم جافة خالية من طلاوة الربانية، وعذوبة الروحانية. . .

والمسئول السياسى أو الإدارى أو الاجتماعى وغيره -وهو على ثغرة مسئوليته- قد يظن أنه بلغ سنام الأمر، وحقق ذروة النصر، من غير أن

(١) المصدر السابق: ٢١.

يحس بالخواء النفسى والروحى، والانكفاء التربوىّ، ومن غير أن يشعر بالتآكل الإيمانى فى حياته، وهو إن لم يفطن لذلك ويبادر لاستنقاذ نفسه فإنه ساقط لا محالة، فالإيمان كما هو معروف يزيد وينقص... والظروف السيئة التى تمر بالدعوة -أحيانًا- تفرض المزيد من الاهتمام التربوىّ وليس العكس، لأن احتياج الناس إلى الرعاية والاهتمام والتذكير إنما يكون أكبر فى الظروف الاستثنائية.

إن منطقًا يجب رفضه بالكلية وهو منطق اعتبار بعض الأشخاص فوق التربية، أو بدون حاجة إلى التربية، أو أنهم تجاوزوا مرحلة التربية، وهذا المنطق هو الذى يورد هؤلاء الناس موارد التهلكة، ويتسبب فى إسقاطهم أو سقوطهم، إن هذا المنطق يتناقض بالكلية مع الإسلام وفلسفته التربوية التى تعتبر الإنسان فى امتحان دائم مع دعوته، وفى اختبار مستمر مع دينه، والتى تفرض عليه دوام العناية بنفسه، والرقابة لربه، والتعهد لسلوكه، والتنمية لإيمانه...»[١].

وللتربية الصحيحة المعينة على الثبات جوانب يجب مراعاتها، ومنها:

أ- التربية الإيمانية:

وهى التى تقوى اليقين، وتعظم الأمل بالله، فصيام التطوع، والإنفاق فى وجوه الخير، وقيام الليل، وتعلق القلب بالله، واليقين بالدار الآخرة، والجزاءِ الكائن فيها، كل ذلك وأمثاله خير معين على الثبات حتى الممات.

(١) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٥١- ٥٣.

ب- التربية الثقافية:

وتشمل الثقافة الشرعية، والثقافة الإسلامية العامة، والثقافة الإنسانية، وأحوالَ الأمم من حولنا، وهاتان الأخيرتان مفيدتان جدًا فى تثبيت المرء، إذ معرفة التخبط الشامل الذى تعيشه الأمم من حولنا معين لنا على التمسك بدين الإسلام والثبات عليه.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠، ١١].

لابد أن نحيط «بثقافة عصرنا وحضارته، وممارسة هذه الثقافة وهذه الحضارة ممارسة اختبار واختيار، فإننا لا نملك الحكم على ما ينبغى أن نأخذ منها وما ينبغى أن ندع إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والاختبار، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار»(١).

جـ- التربية العملية (التربية بالمواقف):

وهذه التربية مهمة فى توعية المؤمنين وتثبيتهم، إذ ليس أفضل من التنويه بمواقف ثبات الثابتين وأخبارهم من أمثال ثبات المجاهدين فى البوسنة وفلسطين والشيشان، وأيضًا يجب التذكير بمواقف المتخاذلين ومصيرهم، فإن هذا ينفر القلب من أحوالهم فيأنف المرء منها.

(١) «المستقبل لهذا الدين»: ١١٨.

د- التربية على الدعوة إلى الله عز وجل[1]:

الدعـوة إلى الله تعالى بلسـانى الحـال والمقال بقلب مـخلص، وذهن سيَّال، وعمل دائب، هى خيـر وسيلة للثبات على دين الله تعالى، وكف الوساوس عن المرء، إذ ستصبح الدعوة -بتلك المثابة- شغلَ المرء الشاغل، وديدَنه المستمر، وهمّه فى الدليل والنهار، ومن هذا حاله كيف لا يثبت، ويضاف على هذا أيضًا ما تحدثه الدعوة فى نفس الداعية من تحدى العوائق وأهلِ العناد والباطل، وهما من أشد وسائل الفتك بالثبات، فإن حاربهما الداعية فهو ثابت إن شاء الله تعالى.

إن الدعوة إلى الله تعالى صِمَام أمان للثبات، إذ الداعى بهمة وحماس ونشاط، على بـصيرة وبينة إنما يكـون راسخًا رسـوخًا عظيـمًا، ويندر أن يتراجع مثل هذا أو ينعدم ثباته.

«وإنما كان الداعـية إلى الله -تعالى- ثابت لأنه يدعو إلى دين مـتقن، عادل، وسط، يعلم من مزاياه العظيمة ما لا يعلمـه كثير غيره، ويريد أن يحمل الناس عليه، ويدلهم على سعادتهم الدنيوية والأخروية، فهو -إذًا- مندفع للحديث عنه وتطبيقه فى نفسه وأهلـه ومجتمعه، ومن كان كذلك فإنه يكون ثابتًا راسخًا»[2].

والناظر فى حـال الدعاة -اليوم- فى أنحـاء العالم الإسـلامىّ يجدهم أكثـر الناس ثبـاتًا رغم تهديدات الطغـاة والمجرمـين، وتعذيبـهم إياهم،

---

(١) استفدت هذه الفكرة من كتاب «وسائل الثبات على دين الله» للشيخ محمد المنجد ص ٣.

(٢) «الفتور» للشيخ جاسم المهلهل: ٣٦-٣٩ بتصرف.

والتضـييق عليـهم فى أرزاقهم، ومع ذلك كله لم تلن لأكـثرهم قناة ولا ضعف لهم ثبات، ولله الحمد والمنة.

٧- الاطلاع على سير الثابتين:

إن الاطلاع على سير الصـالحين الثابتين من الأنبـياء والرسل والأولياء والعلماء والمجاهدين لهو خير معين على الثبات، قال تعالى:

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وراجع -أخى القارئ- صور الثبات فى هذا الكتاب.

والاطلاع على سـيـر الثابـتين يزرع الثـقـة فى النفـوس والأمل فى القلوب، إذ الثابت سيـكون من تلك القافلة النورانية الثابتـة على العهد من لدن آدم حتـى تقوم الساعـة، وكم فيـها من رسـول مجتـبى، ونبى مصطفى، وولى صالح، وداعيـة راسخ ثابت، وهذا الشعور بالاصطفاء والسـير مع الـصالحـين يولد طاقـة إيمـانية دافـعـة للمـرء إلى الثبـات والتماسك.

٨- قراءة التاريخ والسيَر:

وهذا مكمل لما قـبله لكنه أعلم منه وأوسع، وقـراءة التـاريخ عامـة، والاطلاع على السِّيَر خاصة معين ثَرٌّ لـلثبات، ومجدد لما خَلَق منه، ومُقوٍّ لما ضعف فيه، وما ذلك إلا لأن قـارئ التاريخ والمتعمقَ فى الاطِّلاع على رجاله وأحوالهم إنما يكتـسب التجارب المهمة الـتى جرت للرجال المؤثرين

على مدى مئات السنين أو آلافها، فيقتدى بثباتهم ورسوخهم وتضحياتهم، ويجتنب عثراتهم وضعفهم، القوى الثابت له قدوة، والضعيف المتخاذل فيه عبرة.

قال الله تعالى مذكرًا المؤمنين بأحوال الضعاف المخاذيل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال جل شأنه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال عز وجلَّ مثنيًا على الثابتين الراسخين:

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

وقال تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٧].

وقال عز وجلَّ:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وقال تعالى:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٩- الثقة بنصر الله تعالى(١):

إذ ليس أضر على ثبات المرء من يأســه من النصر، وظنه أن الله خاذله وتاركه، والإسلام العظيم يبث الثقة فى نفوس متبعيه، ويثبتهم ويبشرهم، ويزرع الأمل بالنصر فى قلوبهم، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٩- ١٤٠].

---

(١) استفدت هذه الفكرة من كتاب «الصبر فى القرآن الكريم» للدكتور يوسف القرضاوى: ١١٢.

وقال تعالى:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

ولقد بشر النبى ﷺ خبابًا والمؤمنين معه أن الله سيفتح الجزيرة على المسلمين حتى يسير الراكب فى أرجائها فلا يخشى عدوًا ولا هلكة(١).

وقد بشر رسول الله ﷺ المسلمين بأنهم سيفتحون القسطنطينية وروما، ففتح الله عليهم الأولى، ومازلنا ننتظر الفتح الآخر القريب إن شاء الله تعالى.

فعن أبى قَبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو فسُئل أى المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ قال: فدعا عبد الله بصندوق له حَلَق فأخرج منه كتابًا، فقال عبد الله: بينا نحن عند رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أى المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو ورمية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مدينة هرقل تُفتح أولاً، يعنى القسطنطينية**»(٢).

وقد تحقق ما قاله ﷺ وفُتحت القسطنطينية -وهى استانبول- وننتظر، إن شاء الله تعالى، فتح روما.

---

(١) سبق إيراد حديث خباب رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورجاله ثقات، انظر «مجمع الزوائد»: ٦/ ٢٢٢.

وهذه الأخبار من أعظم المثبتات على الحق المبعدات عن اليأس.

وهناك أمر مـهم فى هذا الباب وهو أن الثقـة بنصر الله لا تعنى أن يرى المسلم نتيجـة عمله وأن يعى النصر بنفسه، إذ يكفيـه أن يكون ممهدًا للنصر فذاك شأن إلهى وتكريم ربانى يفيضه الله -تعالى- على من شاء من عباده.

وبعض العامـلين يؤثر فيه جـدًا ويُضعف من ثبـاته عدم رؤيتـه نتائج جهده وجهـاده ودعوته، ويكفى أن يقال لمثل هذا: إن رسول الله ﷺ لم يشهـد فتح فارس والروم ولم يعش -بأبى هو وأمى- ليـرى راية الإسلام خفَّاقة فى العالمين، إنما رأى ذلك أصحابه وتابعوهم رضى الله عنهم.

فمن طبيـعة الطريق إذًا أنه «طريق طويل وشاق، بعيد المراحل، كـثيرُ العـقبـات، فلابد أن يوطن كل منا نـفسـه على الصبـر الجمـيل والنفَس الطويل، ويوقن أنه قد يموت دون رؤية النصر، حسبه أنه سار فى الطريق ومات وهو فيه»(١).

ثم إنه مما يعظم الثقة بالنصر المحتم لهذا الدين ما يسمعه المرء اليوم من «هُتافات كثيـرة من هنا ومن هناك تنبعث من القلوب الحائرة، وترتفع من الحناجر المتعبة تهتف بمنقذ، وتتلفت على مُخلِّص، وتتصور لهذا المخلص سمات وملامحَ معينةً تطلبـها فيه، وهذه السمات والملامح لا تنطبق على أحد إلَّا على هذا الدين.

فمن طبيعة المنهج الذى يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج نستمد نحن يقيننا الذى لا يتـزعزع فى أن المستقبل لهذا الدين، وأن

(١) «من ركائز الدعوة»: د. مجدى الهلالى: ٢١٥.

له دوراً فى هذه الأرض هو مدعوٌّ لأدائه، أراد أعداؤه كلهم أم لم يريدوا، وأن دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى -كما لا يملك منهج آخر- أن يؤديه، وأن البشرية بجملتها لا تملك كذلك أن تستغنى طويلاً عنه.

إن البشرية قد تمضى فى اعتساف تجارب متنوعةٍ هنا وهناك -كما هى الآن ماضية فى الشرق وفى الغرب سواء- ولكننا نحن مطمئنون إلى نهاية هذه التجارب، واثقون من الأمر فى نهاية المطاف»[١].

١٠- التزام شريعة الإسلام وآدابه ضمان الثبات:

التزام شريعة الإسلام العظيمة وآدابه الكريمة الطريق الأوفق للمحافظة على الثبات، وهناك مجموعة من القواعد الباهرة الدالة على عظمة الإسلام وحياطته أهله وحمايته إياهم من آفة التذبذب أو آفة التشدد الموصلتين إلى الانقطاع والترك، وكل ذلك حَيْدٌ عن الثبات وتراجع عنه، فمن تلك القواعد:

أولاً: الحث على استدامة العمل الصالح ولو كان قليلاً:

عن عائشة -رضى **الله** عنها- أنها قالت واصفةً نوعَ العملِ الصالح الذى يحبه النبى ﷺ:

«وكان أحبَّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»[٢].

---

(١) «المستقبل لهذا الدين»: ٧-٨.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب الإيمان: باب أحب الدين إلى الله -تعالى- أدومه: ١/ ١٧.

وعن عائشة -رضى الله عنها- أن النبى ﷺ قال:

«إن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دُووِم عليه وإن قلَّ»(١).

وقال الإمام النووى -رحمه الله تعالى- معلقًا على هذا الحديث:

«وفيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيرًا من الكثير لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق -سبحانه وتعالى- ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة»(٢).

ثانيًا: الحث على الاستزادة من أعمال الخير والبر:

إن الإسلام يحرض المرء على أن يكون يومه خيرًا من أمسه، وغده أفضل من حاضره، ولهذا التحريض أثر فى نفس المسلم؛ حيث إنه يسوقه إلى الخيرات ويبعده عن الشرور والمفاسد، وإن حاول المسلم واجتهد ليحقق الاستزادة المرجوَّة من الخير ولم يُفلح فإنه سيضمن -على الأقل- ثباتًا على حاله الحسن الذى يعيشه.

قال ابن مسعود رضى الله عنه:

(١) أخرجه الإمام مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضيلة العمل الدائم: ٦/٤٠٢.

(٢) «شرح صحيح مسلم للنووى»: ٦/٤٠٢- ٤٠٣.

«ما ندمت على شىء ندمى على يوم غربت شمسه نقص أجلى فيه ولم يزد فيه عملى»[1].

وقال سفيان بن عيينة: قال معن: ما رأيت مِسعْرًا -وهو ابن كِدام العملالى، شيخ العراق -فى يوم إلا وهو أفضل من اليوم الذى كان بالأمس[2].

ثالثًا: الاحتراس حال الفتور:

قال ﷺ:

«لكل عمل شِرّة، ولكل شِرّة فَتْرة[3]، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»[4].

فينبغى على المسلم إن فَتَر عن العمل الصالح والتطوعات ألا يفرط أبدًا فى الفرائض، إذ هى بمثابة الروح للبدن، فإن ترك المسلم الفرائض كلها أو بعضها فقد هدم ثباته بيده، ويوشك أن يهدم دينه كله.

إذًا هناك حدٌّ أدنى من التعبد والالتزام بشرائع الإسلام لا يجوز للمسلم أن يفرط فيه ولا أن يتكاسل ويفتر عن أدائه مهما كان الأمر.

(١) «الوقت فى حياة المسلم»: ١٣.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٧٧.
(٣) الشِّرَّة: النشاط، وشِرَّة الشباب أوله ونشاطه، انظر «الترغيب والترهيب»: ١/ ٨٧.
(٤) قال الإمام المنذرى: رواه ابن أبى عاصم وابن حبان فى صحيحه، انظر المصدر السابق، وقد صحح الحديث الأستاذ أحمد شاكر: انظر «العوائق»: ٩.

وهناك أمر مهم يجب أن يراعى حال الفـتور وهو ألا يحاول الفاتر أن يلصق سبب فتوره بأحد من الخلـق، أو يكله إلى أسباب غير منظورة، أو أن يؤدى به الفتور إلى ضـياع الوفاء، وكفران العشيـر، والتنكر للجميل، والامتلاء بالغل والحقد على المسلمين، أو أن يؤدى به الفتور إلى الانقطاع التـام عن العـمل والدعوة فـإن ذلك داء عُـضال ومـرض مُـتلف، والله المستعان.

رابعًا: الترويح والاستجمام وعدم التشديد على النفس:

وهذه مسـألة مهمة، إذ الـعبادة المتصلة قـد تورث صاحبـها المللَ أو الانقطاع، ونبينا -ﷺ- قد روَّح عن نفسه أحسن الترويح، فكان يتزوج النسـاء، ويحب الحلواء والطيب، ويلاعـب أهله، ويمازح أصـحـابه، وينكر على من أبدى تشددًا، ولعل قصة النفـر الثلاثة الذين تقالوا عبادة النبى ﷺ مـعبـرة عن هذا التـرويح المطلوب، فـعن أنس رضى الله عنه قال:

«جاء ثلاثة رهط إلى بيـوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عـبادة النبى ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها[1]، فقالوا: وأين نحن من النبى -ﷺ- قد غُفر له ما تقدم من ذنبه ومـا تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبدًا، وقال آخـر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعـتزل النساء فـلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فـقال: «**أنتم الذين قلتم كذا**

(١) أى رأى كل منهم أنها قليلة، انظر «فتح البارى»: ١٩/١٢٦.

وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطِر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[١].

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى:

«المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد فإنه أمكن لاستمراره، وخير العمل ما دام عليه صاحبه»[٢].

وقال أيضًا:

«الأخذ بالتشديد فى العبادة يفضى إلى الملل القاطع لأصلها»[٣].

وعن عائشة -رضى الله عنها- أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة فقال: «من هذه؟» قالت: فلانة تذكر من صلاتها، قال: «مه[٤]، **عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله**[٥] **حتى تملوا»**[٦].

وقصة عبدالله بن عمرو بن العاص مع النبى ﷺ صالحة لهذا السياق، فقد قال رضى الله عنه:

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب النكاح: باب الترغيب فى النكاح: ٧/ ٢.

(٢) «فتح البارى»: ١٩/ ١٢٦.

(٣) المصدر السابق: ١٩/ ١٢٧.

(٤) اسم فعل أمر بمعنى اكفف.

(٥) قال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى «قال جماعة من المحققين: إنما أطلق هذا على جهة المقابلة اللفظية مجازًا كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾» [الشورى: ٤٠] انظر «فتح البارى»: ١/ ١٧٥-١٧٦، وإنما قالوا ذلك لاستحالة الملل على الله تعالى.

(٦) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب الإيمان: باب أحب الدين إلى الله تعالى أدومه: ١/ ١٧.

«أنكحنى أبى امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَنَّته[1] فيسألها عن بعلها، فتقول: نعم الرجل من رجل، لم يطأ لنا فراشًا، ولم يُفتش لنا كنفًا مذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبى ﷺ فقال: **القَنى به**، فلقيته بعد، فقال: **كيف تصوم؟** قال: كل يوم، قال: **وكيف تختم؟** قال: كل ليلة، قال: **صم فى كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن فى كل شهر**. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: **أفطر يومين وصم يومًا**. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: **صم أفضل الصوم: صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ فى كل سبع ليال مرة**. فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذلك أنى كَبِرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السُّبْع من القرآن بالنهار، والذى يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخفَّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئًا فارق النبى ﷺ عليه»[2].

تلك كانت ثلاثة من آداب الإسلام يُرجى مع المحافظة عليها الثبات على الصراط إن شاء الله تعالى.

١١- الخوف من الانتكاسة وسوء الخاتمة:

وهذا سبب دافع للثبات؛ إذ رؤية المنتكسين، وسماع أخبار أصحاب الخاتمة السيئة يدفع المهتدين الثابتين للعلو على شأن أولئك، والترفع عن

(١) أى زوج ابنه.

(٢) أخرج الحديث الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب فضائل القرآن باب فى كم يُقرأ القرآن: ٦/ ٢٤٢.

الدركات التى صاروا إليها، والمنازل التى كبكبوا فيها، وفى الوقت نفسه يغرس الخوف من المصير الذى صاروا إليه.

ولعل من حِكم ذكر المتنكسين فى كتاب الله -تعالى- هو تنبيه المهتدين وتخويفهم حتى لا يسلكوا مسلك أولئك الأشقياء، فيختم لهم بما ختم لهم.

و«اعلم أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا ولا عُلم به -والحمد لله- وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه[1] الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيمًا ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سَنَنه[2]، ويأخذ فى طريقه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته»[3].

تلك كانت جملة من العوامل المبقية للثبات بحول الله وقوته، وإليك أخى القارئ جملة من العوامل الهادمة للثبات المذهبة له:

***

(١) الاصطلام: الاستئصال، انظر «لسان العرب»: صلم.

(٢) السَنَن: الطريقة.

(٣) «التذكرة فى أحوال الموتى والدار الآخرة»: ١/ ٦٤-٦٥.

عوامل هدم الثبات

هناك عدد من العوامل الهادمة للثبات، التى إذا اجتمع بعضها أو أكثرها على العبد أهلكته، فمن هذه العوامل:

أولاً: الأمراض القلبية:

وهى أعظم أسباب الفتك بالثبات، فمن تلك الأمراض:

١ - التخوف:

وينقسم هذا التخوف إلى تخوف على النفس وعلى الأهل والأولاد، وعلى المنصب والجاه، وعلى المال:

أ- التخوف على النفس:

وهذا التخوف من أكبر معوقات الثبات، إذ يظن المتخوف أنه إن ثبت على الدين فإنه سيخاطر بنفسه مخاطرة عظيمة، وهذا من وساوس الشيطان -ولا شك-، فقد قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً**﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾ [الأعراف: ٢٧].

- حب السلامة يثنى هم صاحبه   عن المعـالى ويُغـرى المرء بالكسل
فإن جَنَحْتَ إليـه فاتخذ نفـقًا   فى الأرض أو سلمًا فى الجو فاعتزل

ب- التخوف على الأهل والأولاد:

وهذا الخاطر الشـيطانى يجول بقـوة فى أذهان كثيـر من الناس اليوم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

ونقل الإمام ابن القيم فى معنى «فتنة»:

«قـال مقـاتل: أى بلاء وشـغل عن الآخـرة، قـال ابن عـباس: فـلا تطيعـوهم فى معـصية الله، وقـال الزجّاج: أعلمـهم الله -عز وجل- أن الأموال والأولاد مما يـفتنون به، وهذا عـامّ فى جمـيع الأولاد، بسبـبه، وتناول الحرام لأجله، ووقع فى العظائم إلا من عصمه الله»[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الولد مبخلة مجهلة مجبنة**»[(٢)].

وهذا الحديث منطبق على كل من عنده ولد إلا من هذب الإيمان قلبه، وملك عليه جوارحه، فـإنه ليس للأولاد عليه سلطان إلا سلطان الشرع، وثبات مثل هذا ثبات الجبـال الرواسى، ألا ترى حال سيدنا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كيف عزم على ذبح ابنه البكر إسماعيل لمّا علم أن ذلك

(١) «معالم الدعوة فى قصص القرآن الكريم»: ٨٦، نقلاً عن «إغاثة اللهفان».

(٢) قال الإمام الهيثمى: «رواه البزار ورجاله ثقات»، انظر «مجمع الزوائد»: ٨/ ١٥٨.
وهناك رواية أخرى: «**الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة**» وهى رواية حسنة بشواهدها، وانظر المصدر السابق.

مراد الله، ثم لمّا أظهر الله -تعالى- صدقه صرفه عن ذلك وفداه بذبح عظيم.

ولا ينبغى للعبد الصالح أن يكثر من التخوف على الأهل والأولاد، فقد قال الإمام محمد بن المنكدر:

«إن الله يحفظ العبد المؤمن فى ولده وولد ولده، ويحفظه فى دُوَيرته ودُويرات حوله، فما يزالون فى حفظ أو فى عافية ما كان بين ظهرانيهم»[1].

وقد دخل أبو سعيد الواسطى على الإمام أحمد فى سجنه فقال له:

«يا أبا عبد الله: عليك عيال، ولك صبيان وأنت معذور -كأنى أسهل عليه الإجابة[2]- فقال لى أحمد بن حنبل:

«إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت»[3].

«وما أكثر ما يقال مثل هذا للدعاة اليوم، وما أكثر من يفهم الإسلام ثم يحدث نفسه بمثل هذا فيجبن وينزوى ولا يشارك الدعاة سيرهم، وإنما هو حديث من استراح -كما يقول الإمام أحمد- وأما من لذع واقع الإسلام قلبه فأنى له الراحة؟ وأنى يدع لصبيانه وزوجه مجال تخذيله وتقييده عن الاندفاع مع الدعاة؟...»[4].

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٢) أى إلى القول بخلق القرآن خوفًا عليه من بطش السلطان.

(٣) «طبقات الحنابلة» لأبى يعلى، نقلاً عن «المنطلق»: ٢٣٢.

(٤) «المنطلق»: ٢٣٢.

جـ- التخوف على المنصب والجاه:

قد ينشأ ناشئ من المسلمين على الطهر والعفاف، وتراه ممتلئًا حماسًا وقوة لنشر دين الله -تعالى- فى الأرض والتمكين له، حتى إذا تقلب به الزمان - والدهر قُلَّب حُوَّلٌ- وتسلم المناصب والمراكز هان عليه أمر الدعوة، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل أو تناسى، وقنع بالمنصب الدنيوى، وصارت حياته أكلاً وشربًا ونومًا ومسارعة فى اللذائذ، وتوسعًا فى المباحات، وفقد المسلمون داعية متحمسًا كان الأمل معقودًا عليه للتغيير والإصلاح.

د- التخوف على المال:

وهذا من مكائد الشيطان القديمة، وقد حذر الله تعالى من ذلك فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧].

وقال ﷺ: **«تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»**[١].

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى هريرة -رضى الله عنه- فى كتاب الجهاد: باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله: ٤/ ٤١ - ٤٢.

والخميصة: كساء أسود مربع، والمراد مطلق الملابس، وانظر «لسان العرب» خ م ص.

وقال ﷺ: «... فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»(١).

ويذكر الأستاذ فتحي يكن مثالاً على هذا الباب فيقول:

«أعرف أخًا كان قبل زواجه مقدامًا معطاءً، ولقد نُكب بزوجة سيئة وضعت الموت والفقر بين عينيه، فكانت كلما رزق بغلام ذكرته بحقه المادى عليه، وأن عليه مضاعفة السعى من أجله، ولما تكاثرت ذريته - وامرأته على هذه الشاكلة- سقط فى الامتحان، وأصبح عبدًا للدينار بعد أن أصبح عبدًا للزوجة، وهو حتى الآن لم يحسّ بالجريمة التى ارتكب، وبالهاوية التى فيها سقط، ولقد نسى ما كان يذكر به إخوانه والناس»(٢).

هـ- التخوف من الاستهزاء والسخرية والاتهام الباطل:

وهذا أمر يخشاه أكثر الناس، ولا يصبرون له ولا يثبتون، حيث الاستهزاء بهيآتهم، أو بسلوكهم، أو بأفكارهم، يفعل فعله فى النفوس، وكذلك الاتهام الباطل لهم، والطعن فى إخلاصهم معْول هدم عظيم فى ثبات هؤلاء، وكأن هؤلاء الناس لم يتمعنوا فى سيرة المصطفى ﷺ حيث كان يُستهزأ به ويُسخر، ويُتهم تارة بأنه مجنون، وأخرى بأنه شاعر، ثالثة بأنه كاهن، ورابعة بأنه ساحر، وكان يتهم بأنه مؤلف للقرآن، كاذب على

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه بسنده إلى عمرو بن عوف الأنصارى -رضى الله عنه- فى باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب: ٤/ ١١٧- ١١٨.

(٢) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٨٤.

الرحمن، لـكن كل ذلك لم يَفُت فى عضـده، ولم يُلن له قناة، بأبى هو وأمى، ﷺ.

والاستهزاء بالأنبياء والمصلحين سمـة عامة فى كل أمة دعوة، والثبات حال الموفقين الصالحين فى كل زمان ومكان.

٢- العُجب:

وهو السرور والفرح بالنفس سروراً يتجاوز الحد والمقدار، وتصور المرء نفسـه على غير مـا هو عليه حقًـا، وهذا مرض فتـاك يؤدى إلى أمراض مهلكة مثل الكِبر واحتقار الناس.

وعرف الإمام ابن المبارك العـُجب، وحذر منه، فقال: «أن ترى عندك شيئًا ليس عند غيرك، لا أعلم فى المصلين شيئًا شرًا من العُجب»[(١)].

وهذا أصل مرض إبـليس حيث قال الله تعـالى قاصًـا اعتـراضه على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] فأعجبت المسكين نفسـه حيث ظن أن النار خير من الطين، فأورثه ذلك العُجب خسران الأبد، والعياذ بالله.

وهذا قارون أعجب بنفسـه وماله فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] فأهلكه الله تعالى حيث خسف به الأرض.

وقد يُعجب العـامل للإسلام بعمله وعلمه فـيؤدى به ذلك إلى ذهاب ثباته وهلاكه والعياذ بالله تعالى.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٧.

ويشفى من هذا الداء معرفة الإنسان بأصل خلقته، وأن الله هو المنعم المتفضل عليه، ولا حول للمرء ولا قوة فيما رُزق أو وُهب من نعم، وإذا قال المرء هذا الدعاء النبوى مخلصًا من قلبه فقد برئ من العجب، قال ﷺ:

«من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بى من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسى فقد أدى شكر ليلته»(١).

٣- اليأس:

وهو مرض قلبى فتَّاك، وإن تعدى حده الأعلى، واستولى على القلب بالكلية خرج بالعبد إلى دائرة الكفر -والعياذ بالله تعالى- قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧].

وهو إن تردد فى صدر الداعية أفقده حماسه، ورزأه ثباته.

«من المؤثرات النفسية التى يواجهها الدعاة، ويستشعرون بها، ويجدون الكثير ممن يُحسبون على الإسلام يتشدقون بها، ويرفعون لواءها «المؤثر التيئيسى الانعزالى» الذى يقعدهم عن مسئولية الدعوة، ويثبطهم عن فرضية الجهاد، ويدفعهم إلى عزلة المجتمع والركون إلى الاسترخاء

(١) أخرج الحديث الإمام أبو داود -رحمه الله تعالى- فى سننه: كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح: ٤/ ٣١٨: ٥٠٧٣.

والانطوائية. . . وهذه الظاهرة من التيئيس والتثبيط إذا استفحلت فى أمة، وترسخت فى نفسية الدعـاة فإنها فى الحقيقة القاصمـة التى تقصم مسيرة العمل الإسـلامى، والحالقـة التى تحلق التفـاؤل بالنصر، فلم يبق لإقـامة العزة الإسلاميـة فى النفوس رجاء، ولم يعد لاستعادة الأمجـاد التاريخية أمل»[1].

وانظر إلى رئيس وزراء تركيا البروفيسور نجم الدين أربكان حيث عاصر أشد صور العلمـانية عداءً للإسلام مدة طويلة جـدًا، لكنه استطاع بفضل الله -تعالى- ثم بجـهده ومثابرته فى الدعوة أن يصل بأصـحابه إلى تولى المسؤولية سِلْمًا ولأول مرة فى البلاد الإسـلامية فى تاريخها الحديث، وإنه لحدث ضـخم ما كان لـيكون لو أن أربكان ومن معه أخـلدوا إلى الراحة واستسلموا لليأس.

قال الإمام ابن القيم:

«كـثيـر من الناس يظن أن أهل الدين الحـق فى الدنيـا يكونون أذلاء مقهـورين، مغلوبين دائمًا، بخـلاف من فارقهم إلى سبيـل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصًا بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى، ومن سوء الفهم فى كتابه»[2].

(١) «عقبات فى طريق الدعاة»: للأستاذ عبد الله علوان: ٢٢٢.

(٢) «إغاثة اللهفان»: ٢/ ١٨٣.

٤- الاستعلاء الكاذب:

لابد للمؤمن من استشعار الاستعلاء الإيمانى، وأنه خير من الكافرين والفاسقين فى الحال والمآل -إن شاء الله- فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، لكن هناك استعلاء كاذب يحمل المرء على الكبر وتجاوز الحد فهذا هو المحذور، وإليك أخى القارئ قصة جَبَلَة بن الأيهم الغسانى آخر ملوك الغساسنة فهى دالة على خطر الاستعلاء والغرور، وأنه قد يؤيدى إلى إذهاب الثبات بالكلية، ومفارقة دين الإسلام -والعياذ بالله تعالى- فقد كتب جبلة إلى عمر رضى الله عنه يعلمه بإسلامه ويستأذنه فى الوفود عليه، فسر بذلك هو والمسلمون، فكتب إليه عمر: أن اقدم فلك ما لنا وعليك ما علينا، فقدم فى خمسمائة فارس من عدد جفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم الوشى المنسوج بالذهب والحرير الأصفر وجلل الخيل بجلال الديباج وطوقها بالذهب والفضة، ولبس جبلة تاجه وفيه قُرطا مارية، فلم يبق بالمدينة أحد إلا خرج للقائه، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه، ثم حضر الموسم من عامه ذلك، فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من فزارة فحله، فالتفت إليه جبلة مُغضبًا ولطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه إلى عمر رضى الله عنه فبعث إليه يقول: ما دعاك إلى أن لطمت أخاك فهشمت أنفه؟

قال: إنه وطئ إزارى فحله فلولا حرمة البيت لأخذت الذى فيه عيناه.

فقال له عمر: أمَّا أنت فقد أقررت فإما أن تُرضيه وإلا أقدته منك.

قال: أتُقِيده منى وأنا ملك وهو سوقة؟

قال عمر: يا جبلة إنه قد جمعك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية.

قال: والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية.

قال عمر: هو ذاك.

قال: إذًا أتنصَّر.

قال: إن تنصَّرت ضربت عنقك.

فقال جبلة: أخرنى إلى غد يا أمير المؤمنين.

قال: ذلك لك.

فلما كان الليل خرج هو وأصحابه فلم يلبث أن دخل قسطنطينية على هرقل فتنصر، فأعظم قدومه وسُر به، وأقطعه الأموال والأرضين والرباع»[1].

٥- التطلع إلى المنصب والثراء:

وهو داء فتاك أذهب بثبات عدد من العاملين، وهو المدخل الشيطانى الذى ولج منه المغرضون وأصحاب الأهداف الدنيئة إلى نفوس بعض

(١) وقصته طويلة، انظر «الوافى بالوفيات»: ١١/ ٥٣ وما بعدها، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٥٣٢، وقد علق الذهبى على قصته بقوله: «ثم ندم على ردته، نعوذ بالله من العتو والكبر»، وللقصة سياق غير هذا، انظر «البداية والنهاية» حوادث سنة ٥٣هـ.

الذين لم تكتمل تربيتهم، ولم يتم إعدادهم لتحمل هذا البلاء العظيم، وهناك أمثلة عديدة للذين ضلوا بهذه الفتنة قديمًا وحديثًا، فمن الأمثلة التاريخية على هذا البلاء ذلك الرجل الذى قصَّ الله -تعالى- علينا قصته بقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧].

وهناك عدد من المحدثين لُوِّح لهم بالمنصب والجاه فما استطاعوا الثبات والنجاة من هذه المحنة، ولا الفكاك من هذه الفتنة، فمنهم:

١- عالم خُدع به الناس زمانًا طويلاً فى الستينيات والسبعينيات من القرن الهجرى الفائت، ثم أظهرته المحنة، وفُتن فتونًا عظيمًا، وباع دينه بعرض من الدنيا قليل، حتى أنه عُين فى منصب مهم، فاستغله لأغراضه الدنيئة، ومطامعه التى لا حصر لها، وصار يهاجم إخوانه الذين أخذوا بيده فى بداياته، وكانوا معه حتى عُرف واشتهر، وقد كان مدير مكتبه يقسم بالله إنه لو أُمر ذلك العالم بالسجود للطاغوت لفعل، وهذا الأمر من مدير مكتبه دالٌّ على الهوة السحيقة التى تردى فيها ذلك المسكين، وكل ذلك بسبب تطلعه إلى المنصب وتعلقه به.

٢- ويصف الأستاذ فتحى يكن حال أحد الناس المبتلين بهذا الداء فيقول:

«أذكر أن لقــاءً جمعنى بأحــد الأعضاء البارزيــن فى حركة إسلامــية، وكان مــتهــمًا بحب الأضــواء والبروز الشــخصى، ومن خــلال المناقــشة اكتشفت شرخًــا مخيفًا فى تربيته، وبصمة ســيئة فى تكوينه حين ابتدرنى قائلاً:

- أنا لا أنكر أن عندى تطلعــات شــخصــية، وهل يمنع الإســلام من ذلك؟

- ثم أردف قائلاً: كل فرد فى الدعوة عنده تطلعات، أو ليست عندك تطلعات؟

قلت له مستغربًا: أنا لا أفهم الإسلام هكذا، وإنما أفهمه استخلاصًا لنا من كل تطلعاتنا، وإنكارًا لذواتنا أمام أهداف الإســلام العلية، ثم أكملت قائلاً:

- إن كان لى من تطلع فأن أرى راية الإسلام منتصرة خفاقة.

قال: وما المانع من أن تحقق الأمرين معًا: تطلعاتنا وتطلعات الإسلام.

قلت: إن ذلك يذكرنى بالأعرابى الذى جاء مــحمدًا ﷺ يعرض عليه أمره ويقــول: إنى أنزل المنزل أريد وجه الله وأن يُرى مــوقعى، فنزل فــيه قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠][1].

(١) انظر «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٥٤، ٥٥.

٣- يقول الأستاذ فتحى يكن -أيضًا- واصفًا حال مجموعة من هؤلاء المبتلين:

«كانوا -فى مقتبل العمر وقبل أن يلجوا إلى المجتمع من بابه الكبير- مثال الالتزام والطاعة، حتى إذا أحسوا فى أنفسهم أنهم أصبحوا شيئًا، أو أصبحت لهم منزلة اجتماعية مرموقة -وقد يكونون بلغوها على حساب الدعوة- إذا بهم يتغيرون... فهذا شاب كان منصب القضاء عامل فتنة فى حياته، ومعول هدم فى سلوكه، وسببًا فى سقوطه.. وآخر كان المال فتنته، ثم زواجه بابنة أحد الوجهاء مصرعه»[١].

٦- التطلع إلى الشهوات:

وهذا بلاء عظيم، إذ يمكن أن ينتكس بسبب ذلك بعض من تظهر عليهم علائم الصلاح، والشهوات مِعْول من معاول إبليس، وهذه قصة رجل مجاهد انتكس بسبب شهوة، فقد ذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله- فى تاريخه نقلاً عن الإمام ابن الجوزى رحمه الله أن رجلاً يُدعى عبده بن عبدالرحيم:

«كان من المجاهدين كثيرًا فى بلاد الروم، فلما كان فى بعض الغزوات والمسلمون محاصرو بلدٍ من بلاد الروم إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم فى ذلك الحصن فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصر وتصعد إلىَّ، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو

(١) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ١٢٤-١٢٥.

عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة.

فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة فى ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان! ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟

فقال: اعلموا أنى أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢، ٣] وقد صار لى فيهم مال وولد»[١].

فهذا الشقى قد انتكس بسبب شهوة أدت إليها نظرة محرمة.

ويقرب من هذا ما صنعه عابد بنى إسرائيل إذ «تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنّها ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القسّ فيداويها، قال: فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده، فبينما هو يومًا عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتنى، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أُنجك مما صنعت بك، اسجد لى سجدة، فسجد له، فلما سجد له قال: إنى برىء منك، إنى أخاف الله رب العالمين»[٢].

(١) «البداية والنهاية»: ١١/ ٦٤.

(٢) ذكر الإمام ابن كثير الرواية عن ابن جرير بإسناده عن على رضى الله عنه، وهنالك سياق أطول من هذا، وانظر «تفسير القرآن العظيم»: ٨/ ١٠١-١٠٢.

٧- الغيرة والحسد:

وهما من أعظم أمراض القلوب تأثيرًا فى الإنسان بعامة، وفى ثباته خاصة، وذلك لأن صاحب الحسد والغيرة لا يطيق أن يرى من هو أفضل منه، وقد يكيده وينصب له الحبائل، فيخسر دنياه وأخراه -والعياذ بالله تعالى- وهذا قابيل قتل أخاه هابيل غيرةً وحسدًا، فأورده ذلك موارد الخسران العظيم.

ومردّ الغيرة والحسد إلى سوء التربية وضعفها، وعدم قناعة الإنسان بما أوتيه من الذكاء والهمة والعلم والعمل، خاصة عندما يرى من يفوقه فى كل ذلك أو بعضه، فبعض أسباب العداء الشديد ليس لها سبب ظاهر ولا تفسير لها إلا الغيرة والحسد.

وإن لم يعالج الإنسان نفسه ويهذبها فإنه يعش مغمومًا محزونًا، ليس له قدم ثابت راسخ فى العلم والعمل، وذلك لأن حسده وغيرته يذهبان بتعقله وثباته، إن لم يذهبا بإيمانه، والعياذ بالله.

وطريق العلاج الأول هو القناعة بالرزق الإلهى والقسمة الربانية، والتسليم لله تعالى فى كل قضائه وقدره؛ فمن صنع ذلك يُرجى له العافية والسلامة إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى مُعظمًا النكيرَ على أهل الحسد والغيرة:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

٨- الغلوّ:

وهو مرض فتاك، أفسد عددًا من المسلمين قديمًا فصاروا خوارج، وهو اليوم يهدد عددًا كبيرًا من شباب الصحوة المباركة.

وقد قال النبى ﷺ: «**هلك المتنطعون**»(١).

وقال ﷺ:

«**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا...**»(٢).

وقال ابن المنير -رحمه الله تعالى- تعليقًا على هذا الحديث:

«فى هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع فى الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل فى العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدى إلى الملال أو المبالغة فى التطوع المفضى إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلى الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه فى آخر الليل فنام عن صلاة الصبح فى الجماعة أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة»(٣).

يقول الأستاذ فتحى يكن:

«أذكر أن أحد الإخوة أقسم ليحفظن القرآن عن ظهر قلب خلال فصل صيف، ولقد اجتهد فى ذلك ولكنه لم يتمكن، فسخط على

(١) أخرج الحديث الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب العلم: ٤/ ٢٠٥٥: ٢٦٧٠.
(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب الإيمان: باب الدين يسر: ١/ ١٦.
(٣) «فتح البارى»: ١/ ١٦٥.

نفسه سخطًا شديدًا، وصمم لينتقــمن منها أبشع انتقام، فما كان منه إلا أن حرم نفــسه من كل مــا أحل الله له: بدأ بصيــام متتــابع لا يفطر إلا لمامًا، وبقيام مــتتابع لا ينام إلا سهوًا، ثم انقطع عن دراستــه وباع كتبه وأثاث غرفتــه، ولقد انتهى به الأمــر بعد ذلك إلى مستــشفى الأمراض العصــبية، وإلى غيــبة عن الدعوة بالكلية، ولا حــول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[1].

نعم تلك صورة حادة لترك الثبات لكنهــا واقعية حاصلة فى دنيا الناس بدرجات متفاوتة من الحدّة والغلو.

وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه:

«والذى لا إله إلا هو ما رأيت أحدًا كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ»[2].

والغلو والتنطع يفضى بصــاحبه إلى الانقطاع وعدم الــثبات، وذلك لأن الإنسان من طبــعه الملل، وهو ذو طاقة مــحدودة، فإن صبــر أيامًا وشهورًا على التشــدد والعُسْر فإنه لن يصبر أكــثر من ذلك، وقد ينتقل من الإفراط إلى التــفريط، ومن التشدد إلــى التسيب فيــدع العمل كله قليله وكثيره[3].

(١) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٨٦-٨٧.

(٢) أخرجه الإمام الدارمى فى مقدمة سننه: ١/ ٥٧ كما فى «آفات على الطريق»: ٣/ ١٩٥.

(٣) «آفات على الطريق»: ٣/ ٢٠٧-٢٠٨ بتصرف.

وقد قال ﷺ: **«لا تشددوا على أنفسكم، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم وستجدون بقاياهم فى الصوامع والديارات»**(١).

وقال الحسن البصرى، رحمه الله تعالى:

«السنة -والذى لا إله إلا هو- بين الغالى والجافى، فاصبروا عليها -رحمكم الله- فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف فى أترافهم، ولا مع أهل البدع فى بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله تكونوا»(٢).

وقد بيّن الإمام الشاطبى الأصولى خطر الغلو، وأثره فى إذهاب الثبات، وضعف التوازن المطلوب فى إتيان التكاليف، فقال:

«اعلم أن الحرج مرفوع عن المكلف لوجهين: أحدهما الخوف من الانقطاع من الطريق وبغض العبادة وكراهة التكليف، وينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه فى جسمه أو عقله، أو ماله، أو حاله.

والثانى: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع؛ مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أُخَر تأتى فى الطريق،

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب: باب فى الحسد، ورجاله ثقات إلا أن عبدالله بن صالح المصرى كاتب الليث -أحد رواته- سيئ الحفظ، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٣٢٧: هامش(١).

(٢) «إغاثة اللهفان»: ١/ ٧٠.

فربما كان التوغل فى بعض الأعمال شاغلاً عنها، وقاطعًا بالمكلف دونها، وربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة فى الاستقصاء فانقطع عنهما.

إن المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية لابد له منها، ولا محيص له عنها، يقوم فيها بحق ربه تعالى، فإن أوغل فى عمل شاق فربما قطعه عن غيره، ولا سيما حقوق الغير التى تتعلق به، فيكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعًا عما كلفه الله به فيقصر فيه، فيكون ملومًا غير معذور؛ إذ المراد منه القيامُ بجميعها على وجه لا يخل بواحد منها ولا بحال من أحواله»[1].

وقال الإمام الذهبى: «وكل من لم يزمّ نفسه فى تعبده وأوراده بالسنة النبوية يندم، ويترهب، ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، ومازال -ﷺ- معلمًا للأمة أفضل الأعمال، وآمرًا بهجر التبتل والرهبانية التى لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا فى العشر الأخير، ونهى عن العزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهى، فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية، المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل»[2].

(١) «الموافقات»: ٢/٩٦-١٠٢، نقلاً عن كتاب: «الاعتدال فى التدين فكرًا وسلوكًا ومنهجًا» للدكتور محمد الزحيلى: ٥٦-٥٧.
(٢) نزهة الفضلاء»: ١/ ٢٢٧.

ثانيًا: الأمراض السلوكية[1]:

فمنها:

أ- الترخص والتساهل فى أمر الصغائر:

وهذا المرض قد لا يُفطن إليه، وهو يفعل فعله فى النفوس فتخلد إلى الأرض وتثقل وتدع العمل والدعوة، بل قد تدع الالتزام بدين الإسلام، والعياذ بالله.

أعرف رجلاً كان صاحب عبادة ظاهرة ودعوى عريضة، فعرض له شىء من التساهل والترخص فأخذ به، واستمرأه وأكثر منه حتى رأيته بعد ذلك عبرة للمعتبر.

وأعرف آخر كان يملأ الدنيا ضجيجًا، ويكثر من ادعاء العلم والعمل حتى أخذ بالرخص وترك العزائم بالكلية فصار فى عداد العوام المقصرين.

وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه:

«إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيعُ القوم[2] فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، حتى جمعوا سوادًا[3]، فأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها»[4].

---

(١) أى العامل الثانى من عوامل هدم الثبات، ولقد سبق ذكر العامل الأول وهو: الأمراض القلبية.

(٢) أى طعامهم. (٣) أى مقدارًا صالحًا.

(٤) قال الإمام الهيثمى: «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق»: انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ١٩٢.

وقال سليمان التيمى: «لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله»[1].

ودخل إسماعيل القاضى على الخليفة العباسى المعتضد بالله، فدفع إليه كتابًا فنظر فيه فإذا قد جُمع له فيه الرخص من زلل العلماء، فقال: مصنف هذا زنديق.

قال: ألم تصح هذه الأحاديث؟

قال: بلى، ولكن من أباح المسكر[2] لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلّة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراق الكتاب[3].

ب- الاستعجال:

وهو مرض عُضال، يدل على سوء فى التربية والإعداد، وهو فاتك بالثبات ومذهب له، وذلك لأنه يناقضه من كل وجه، فالثابت لا يكون عَجِلاً، والعَجِل لا يكون ثابتًا؛ وذلك لأن العَجِل يريد تحقيق أهدافه بسرعة فإن لم يحدث ذلك فلعله لا يثبت وينتكس والعياذ بالله، والعجلة من جبلة الإنسان، قال الله تعالى: ﴿**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وإنما يهذب الإنسان اندفاعه وعجلته بالإيمان فيحصل له الثبات والطمأنينة والتأنى والرسوخ.

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٢٩.

(٢) المقصود بالمسكر -هنا- النبيذ المختلف فيه لا الخمر المجمع على أنها حرام.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٩٩١.

وهذا الإنسان العَـجِل تكون شئـونه غير منضـبطة، ويكون من رباهم على شاكلته؛ هذا إن أحسن التربية فى الأصل، وإلا فإن سمة من يربيهم هذا العَجِل أنهم -مـثله- ضعاف ينقطعـون لأقل سبب ولأدنى شبـهة أو شهوة أو هوى، ورحم الله القائل:

«من لم تكن له بداية مـحرقـة، لم تكن له نهاية مـشرقة»، والـعَجِل كانت بداياته سريعة هينة لذلك فإن نهاياته ليست مشرقة ولا مثمرة ومليئة بالأشواق والشكوك.

وهناك فرق مـهم بين الاستعجـال والإيجابية، فقـد يُظن أن الإيجابى الذى يؤدى مهماته بقوة وحزم عَجلٌ متسرع، والحق أن المؤمن لابد له من تأدية التكاليف والواجبات بقـوة وإيجابية يستبق بهـا أهل الباطل وحزبهم المخذول، ومن كان كذلك فلا يُرمى بالعجلة والتسرع.

جـ- كثرة المزاح وانعدام الجدية أو ضعفها:

المزاح المعتدل الهـادف من سنن سيد المرسلين -ﷺ- فقـد كان يمازح أصحابه -رضى الله عنهم- ولا يقول إلا حقًـا؛ وهذا مشهور معروف من سيرته، ﷺ.

لكننا نرى اليـوم عددًا من المحسـوبين على العلم والدعـوة وقد غلب هزلهم جدَّهم، وكثُـر مزاحهم، وصاروا لا يُلْفَوْن إلا هازلين مقـهقهين، وهذا ليس حال العقلاء، قال ابن عقيل يصف طلبة العلم:

«غلب عليهم الجد، وقلَّ عندهم الهزل»(١).

(١) «الفتور»: ٤٠-٤١.

وقال البنا، رحمه الله تعالى:

«المجاهد الذى ينام ملءَ جفنيه، ويأكل ملءَ ماضغيه، ويضحك ملءَ شدقيه، ويقضى وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا فهيهات أن يكون من الفائزين، أو يكتب فى عداد المجاهدين»[1].

وقال -رحمه الله تعالى- أيضًا:

«أستطيع أن أتصور المجاهد: شخص قد أعد عدته، وأخذ أهْبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواصى نفسه، وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيمَ الاهتمام، على قدم الاستعداد أبدًا، إن دُعى أجاب، أو نودى لبّى، غدوه ورواحه، وحديثه وكلامه، وجده ولعبه لا يتعدى الميدان الذى أعد نفسه له»[2].

من كان كذلك فهو الثابت -إن شاء الله تعالى- ومصيبة أكثرنا أننا صرنا نتفنن فى الطعام والشراب والتنعم والترفه، واختراع المضحكات والتوافه لنجلب ضحك الآخرين، وكأن استدامة الهزل والإغراق فى المضحكات والملذات يبنى النفوس، أو يربى الرجال الثابتين المضحين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثالثًا: مؤثرات خارجية:

أ- الفتن والابتلاءات والمحن:

هذا العامل من أفتك العوامل بالثبات، وهو أفعلها سلبًا فى النفس الإنسانية التى لم يخالطها الإيمان، ولم يهذبها القرآنُ، وصحاحُ الأخبار

(١) (٢) «الفتور»: ٤٠-٤١.

والآثار، ومما يساعد هذا العامل على شدة الفتك بالنفوس وإعظام وساوس الشيطان فيها أنه فى وقت المحن والشدائد يفتقر المرء إلى التثبيت من قبل إخوانه أو مشايخه، وذلك لأنهم إما أن يكونوا قد غُيبوا عنه لسبب أو لآخر، أو أنهم مفتقرون إلى التثبيت افتقاره إليه، أو أن صوتهم -فى نفس المبتلى الممتحن- لا يقوى على مطاولة أصوات الفتن والمحن، ولهذا فإن على الإنسان أن يُعدّ نفسه مبكرًا لتلقى الابتلاءات والمحن بنفس راضية ثابتة مطمئنة، وليعلم أنه لابد له من الابتلاء إما فى نفسه، أو فى أهله، أو فى ماله، أو فى إخوانه، قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وسئل رسول الله ﷺ عن أشد الناس بلاءً فقال:

«الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حَسَب دينه فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقةٌ ابتلاه الله على حسَب دينه، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»[1].

«إن الذين يتصدون للدعوة، ويسيرون فى طريق الإصلاح والتغيير والهداية لابد أن يتعرضوا للمحنة، ولابد أن يواجهوا بأساء الحياة وضراءها، ويخطئ من يظن أن طريق الدعوة دائمًا محفوف بالورد

(١) أخرجه الإمام الترمذى وقال: حديث حسن صحيح، وانظر -للتوسع فى تخريج الحديث- «فتح البارى»: ٢١/ ٢٢١-٢٢٢.

والرياحين، ومفروش بالزينات والسجاجيد، ومغتص بالمودعين والمستقبلين، بل على الداعية أن يعلم أن الطريق قد تكون مفروشة بالصخور الكبيرة العاتية، والأشواك اليابسة المؤذية، والأشقياء العتاة المجرمين، فإن لم يكن معتادًا على الثبات والاحتمال، متروضًا على الصبر والمصابرة فإنه ينهزم فى أول لحظات المحنة، ويتقهقر فى أول لمحات البلاء، ويقعد مع القاعدين اليائسين المثبطين»[1].

«أما المؤمنون فهم أصبر الناس على البلاء، وأثبتهم فى الشدائد، وأرضاهم نفسًا فى المُلِمَّات.

عرفوا قِصر عمر الدنيا بالنسبة لعمر الخلود فلم يطمعوا أن تكون دنياهم جنة قبل الجنة.. وعرفوا سنة الله فى هذا النوع من الخليقة (الإنسان) الذى ابتلى بنعمة حرية الإرادة والاستخلاف فى الأرض، فلم يطمعوا أن يكونوا ملائكة أولى أجنحة.. وعرفوا من سنن أنبيائهم ورسلهم أنهم أشد الناس بلاءً فى الحياة الدنيا، وأقلُّ الناس استمتاعًا بزخرفها، فلم يطمعوا أن يكونوا خيرًا منهم، ولهم فيهم أسوة حسنة..

قال ابن القيم:

يا مخنثَ العَزم: الطريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، وأُلقى فى النار إبراهيم، وتعرض للذبح إسماعيل، ونشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى»[2].

---

(١) «صفات الداعية النفسية»: الدكتور عبدالله علوان رحمه الله: ٤٧.

(٢) «الإيمان والحياة»: الدكتور يوسف القرضاوى: ١٩٤-١٩٥.

«إنها سنة الله القديمة فى تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلاً: أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم، وأن يلقوا فى سبيلها العنت والألم والشدة والضر، وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة، ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة... استحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف، وتحررت من الذل، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء فهى عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة وأرفع ما تكون عن عالم الطين: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ٢١٤]... إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه، من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله، إن سؤالهم: متى نصر الله؟ ليصور مدى المحنة التى تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة... وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة عندئذ تتم كلمة الله ويجىء النصر من الله..

إن نصر الله مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله وعندما يشاء الله، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أى حل آخر، ولا إلى أى نصر لا يجىء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله، بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها جديرين بها بعد الجهاد والامتحان والصبر والثبات والتجرد لله وحده..

هذا هو الطريق كما بينه الله -سبحانه- لكل جماعة مسلمة في كل جيل، هذا هو الطريق: إيمان وجهاد، ومحنة وابتلاء، وصبر وثبات، وتوجه إلى الله وحده ثم يجيء النصر»(١).

«فمن مسه الضر في فتنة من الفتن، وفي ابتلاء من الابتلاءات، فليثبت ولا يتزعزع، وليستبقِ ثقته برحمة الله وعونه، وقدرته على كشف الضراء، وعلى العوض والجزاء»(٢).

«ولابد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] لابد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف -هنا- هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعزّ في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها وكلما بذلوا من أجلها كانت أعزَّ عليهم، وكانوا أضنَّ بها..

ولابد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب

(١) «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: ٣٥١- ٣٥٣.
(٢) المصدر السابق: ٢٣٠.

منافـذ ومسـارب ما كـان ليعلمـهـا المؤمن فى نفسـه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين والتصورات مـا كانت لتصحَّ وتدق وتستقيم إلا فى جو المحنة التـى تزيل الغبش عن العيـون والران على القلوب، وأهم من هذا كله، أو القاعـدة لهذا كله الالتجاء إلى الله وحـده حين تهتز الأسناد كلهـا، وتتوارى الأوهام، وهى شتى، ويخلو القلب إلى الله وحـده لا يجـد سندًا إلا سنده، وفى هـذه اللحظة قـد تـنجلى الغشاوات، وتنفتـح البصـيرة وينجـلى الأفق على مد البصر: لا شيء إلا الله، لا قـوة إلا قـوته، لا حـول إلا حـوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجـأ إلا إليـه.. لذلك فـإن الله قـد وضع الابتـلاء ليـنكشف المجاهدون ويتميزوا، وتصبح أخبـارهم معروفة، ولا يقع الالتباس فى الصفـوف، ولا يبقى مـجال لخفـاء أمر المنافقـين، ولا أمر الضـعاف الجزعين..»[١].

«وما بالله -حاش لله- أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة، فهى في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقى على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقى على الآلام... وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقـواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر»[٢].

---

(١) «طريق الدعوة فى ظلال القرآن»: ٢٢١-٢٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٥.

«وإن العبد المؤمن يرجـو ألا يتعرض لبلاء الله وامتـحانه، ويتطلع إلى عافيته ورحمته، فإذا أصابه بلاء بعد هذا صبر له، وهو مدرك لما وراءه من حكمة، واستسلم لمشيـئة الله واثقًا من حكمته متطلعًا إلى رحمتـه وعافيته بعد الابتلاء»[1].

أنواع المحن والابتلاءات والفتن:

للفتن والابتلاءات صـور كثيرات، تتـعدد بتعـدد صور وأشكال النفس الإنسانية، وأحوالها المختلفة فى السرَّاء والضرَّاء، وتختلف باختلاف البيئة والأشخـاص المحيطين، وتعظم وتشـتد أو تهون وتَيْـسُر بقدر مـعونة الله ورحمته، فمن صور الفتنة:

١- تعـرض المؤمن للأذى المبـاشر من البـاطل وأهله، ثم إنه لا يجـد النصير الذى ينـصره ويدفع عنه، ولا يجد القوة التى يدفع بهـا الطغيان، وهى صورة عنيفة للفتنة لكن هنالك صوراً أعظم:

٢- «فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصـيبهم الأذى بسببه وهو لا يملك عنهم دفعًا، وقـد يهتفون به ليسالم أو ليـستسلم، وينادونه باسم الحب والقرابة واتقاء الله فى الرحم التى يعرضها للأذى والهلاك.

٣- وهناك فتنـة إقبال الدنيـا على المبطلين ورؤية الناس لهم ناجـحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا... وتتحطم فى طريقهم العوائق... وتصفو لهم الحياة، وهو مـهمل منكر لا يحسن به أحد، ولا يـحامى عنه أحد،

(١) المصدر السابق: ٢٢٣.

ولا يشعر بقيمة الحق الذى معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئًا.

٤- وهناك فتنة الغربة فى البيئة والاستيحاش فى العقيدة..

٥- وهناك فتنة... أن يجد المؤمن أممًا ودولاً غارقة فى الرذيلة وهى مع ذلك راقية فى مجتمعها، متحضرة فى حياتها، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان ويجدها غنية قوية، وهى مشاقة لله.

٦- وهناك الفتنة الكبرى، أكبر من هذا كله وأعنف، فتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض وثقلة اللحم والدم، والرغبة فى المتاع والسلطان، أو فى الدعة والاطمئنان، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه مع المعوقات والمثبطات فى أعماق النفس، وفى ملابسات الحياة، وفى منطق البيئة، وفى تصورات أهل الزمان، فإذا طال الأمد، وأبطأ نصر الله كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا من عصم الله»[١].

إذًا أخى القارئ يتبين من العرض السابق أن أصعب عوامل هدم الثبات هو المحن والفتن والابتلاءات، وذلك للآثار العاصفة التى يخلفها فى النفس الإنسانية، وللتدمير الواضح الحاصل فى شخصية المبتلى غير الثابت وغير الموفق، والعياذ بالله.

(١) «طريق الدعوة فى ظلال القرآن»: ٢٢٤-٢٢٥.

ب- اختلاف المسلمين وتفرقهم[1]:

وهذا الأمر يؤثر على ثبات المسلم، وسبب إضعافه الثبات أو إذهابه له إما الملال والكلال من حال المسلمين وتفرقهم واليأس من إصلاحهم، وإما إساءة الظن بأحوال الملتزمين الصالحين؛ فيوسوس الشيطان للإنسان أن لو كان فى هؤلاء خير ما اختلفوا هذا الاختلاف، وهناك سبب ثالث مهم فى تأثير الاختلاف فى الثبات ألا وهو عدم قدرة الشخص الناظر لحال المتفرقين المختلفين على فهم سبب خلافهم أو متابعة جدلهم ومرائهم.

لذلك على المسلم العاقل ألا ينظر إلى الاختلاف العقيم والجدل والمراء، وأن يجعل ذلك وراء ظهره ليحافظ على يقينه وثباته.

جـ- ضغط الأهل والولد:

إن من عوامل الفتك بالثبات ضغط الأهل من والد ووالدة وزوج، وضغط الولد على المرء، فيحصل له نوع رقة، أو نوع تخوف عليهم، فيستجيب لهم، وقد تكون تلك الاستجابة الحاصلة مؤثرة فى ثباته، أو ناقضة له بالكلية والعياذ بالله تعالى.

قال الله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** [التغابن: ١٤].

ولهذه الآية الكريمة قصة دالة على المراد:

فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «هؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين، فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤]: «يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه»[2].

وهذا عياش بن أبى ربيعة ينبئه أبو جهل والحارث بن هشام أن أمه «نذرت ألا يمس رأسها فرقّ لها» ثم فتن بعد ذلك، وكان سبب فتنته الأول هو ضغط الوالدة عليه[3].

واسمع إلى المحاورة التى جرت بين سعد بن أبى وقاص -رضى الله عنه- وأمه، وكان بارًا بها، فضغطت عليه لتثنيه عن الإسلام فقالت:

- يا سعد! ما هذا الدين الذى قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بى فيقال: يا قاتل أمه.

(١) تفسير القرآن العظيم»: ٨/ ١٦٥، وقد أخرج الأثر الإمام الترمذى وقال: حسن صحيح، انظر «سنن الترمذى»: ٥/ ٤١٩-٤٢٠.

(٢) المصدر السابق.

- قلت: لا تفعلى يا أمه؛ إنى لا أدع دينى هذا لشىء، فمكثتْ يومًا لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جهدت، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دينى، إن شئت فكلى أو لا تأكلى، فلما رأت ذلك أكلت(١).

وهذا مصعب بن عمير -رضى الله تعالى عنه- كانت أمه تحبه، وكانت «مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمى من النعال... فبلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فى دار أرقم بن أبى الأرقم، فدخل عليه فأسلم وصدق به، وخرج فكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرا، فبصر به عثمان بن طلحة يُصلى فأخبر أمه وقومه، فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا، فرجع متغير الحال قد خرج، يعنى غلظ، فكفت أمه عنه من العذل»(٢).

واسمع لما جرى على هذا الصحابى الكريم لما عاد من المدينة لشأن من شؤونه قبل أن يهاجر الهجرة الأخيرة.

«قدم مكة فجاء منزل رسول الله ﷺ أولا ولم يقرب منزله، فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام.. فسر رسول الله ﷺ بكل ما أخبره، وبلغ أمه أنه قد قدم فأرسلت إليه: يا عاق أتقدم بلدًا أنا فيه لا تبدأ بى؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ.

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٢٢.

(٢) «طبقات ابن سعد»: ٣/ ١١٦.

فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة[1] بعد؟ قال: أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذى رضى الله لنفسه ولرسوله. قالت: ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة، ومرة بيثرب. فقال: أفر بدينى إن تفتنونى. فأرادت حبسه فقال: لئن أنت حبستنى لأحرص على قتل من يتعرض لى. قالت: فاذهب لشأنك، وجعلت تبكى، فقال: يا أمه: إنى لك ناصح، عليك شفيق، فاشهدى أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. قالت: والثواقب[2] لا أدخل فى دينك فيزرى بى ويضعف عقلى ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على دينى»[3].

أرأيت أخى كيف يثبت المرء الصالح أمام أعظم الضغوط وهو ضغط الوالدة المحبة له العطوفة عليه.

يقول الأستاذ فتحى يكن:

«عرفت أنماطًا غريبة من الآباء، كانوا يُغرون أبناءهم ممن التحقوا بدعوة الإسلام وساروا فى طريق الحق ليحولوا بينهم وبين دعوتهم وإسلامهم، ولو بتشجيعهم على الرذيلة وارتياد أماكن اللهو ليصدوهم عن سبيل الله.

وعرفت آخرين كانوا يضربون أبناءهم ويضيقون عليهم فى المال والرزق ليردوهم عن سبيل الله.

(١) أى الكفر، وكانوا يسمون من أسلم: صابئًا.

(٢) أى النجوم.

(٣) «طبقات ابن سعد»: ٣/ ١١٩.

ولقد حذر القرآن الكريم من الإذعان لضغوط الأهل -آباء وأبناء- وحض على الثبات والصمود والجهاد في سبيل الله، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤][1].

د- التزبب قبل التحصرم[2]:

ومعناه أن يقفز الشخص إلى مكانة ليست له، وأن يتصدر قبل الأوان، ويترأس قائدًا نفسه للهوان.

ورحم الله القائل: «من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه»[3].

وهذه مشكلة تربوية كبيرة، إذ ما إن يبدو على الناشئ علائم النبوغ والتفوق إلا وتحوطه كلمات الثناء المهلكة، ونظرات الإعجاب المزلقة، وهمسات الإطراء الفاتنة، فيضعف ثباته، ويقل عزمه، وتفتر همته، وقد يوضع في مكان غير مناسب له تعجلا واستخفافًا بالسنن الكونية فيكون في ذلك هلاكه.

---

(١) انظر «المتساقطون على طريق الدعوة»: ١١٨.

(٢) معنى التزبب قبل التحصرم، هو أن العنب إذا ظهرت ثمرته فإنه يمر بمرحلة الحصرم ثم النضج ثم يتزبب، فمن تصدر قبل الأوان، وقبل أن ينضج بما فيه الكفاية فإن حاله يكون مبسترًا ناقصًا كحال الزبيب الخَرِب غير الناضج.

(٣) هو أبو سهل الصعلوكي كما في «الكشكول» لبهاء الدين العاملي: ٦٥.

يقول الأستاذ فتحي يكن، حفظه الله تعالى:

«أعرف إنسانًا اختير لعضوية مجمع وهو لما يصبح أهلا لهذا المكان بعد، وعندما انكشف واقعه واستبان خطأ اختياره، وتكررت إساءاته، وبات لزامًا على قيادته معالجة أمره واستبداله بغيره لم يكن منه إلا أن قدم استقالته وترك العمل إلى غير رجعة.

وأعرف آخر اختير لمسؤولية تربوية قبل أن تكتمل تربيته وتستقيم أخلاقه، والذى رشحه لذلك قدرته الخطابية والفكرية ليس إلا، وعندما تسبب بأخطاء، ووقع بانحرافات يصعب وصفها ولا يصح ذكرها وقعت المأساة التى ذهبت به وبمن كانوا معه، وسقطوا من حياة الدعوة بالكلية»[1].

هـ- التأثير السلبى لبعض وسائل الإعلام:

وسائل الإعلام مهمة، ولها وظيفة خطيرة، وهى ذات تأثير فعال فى العقول والقلوب، وجل وسائل الإعلام -اليوم- إنما تخضع لتوجيهات وتأثيرات تخالف تعاليم الإسلام العظيمة، وأكثرها موجه لإضعاف شأن الإسلام فى النفوس، وذلك الإلقاء الفاسد الذى تزاوله تلك الوسائل يضعف أو يذهب بثبات كثير من العاملين الصادقين، الذين قد يعتريهم الضعف من جراء ما يُلقى عليهم، وإليك أخى بعض تلك الطرق:

---

(١) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٥٩-٦٠.

١- إضعاف الوازع الإسلامى فى النفـوس، وذلك بتهوين شأن الحلال والحرام، وحث الناس -بطريق مـباشر أو خفى- على التفـلت من شعائر الإسلام وواجباته.

٢- التـخطيط لإثارة النعرات والقـوميـات الكفيلة بالقـضاء علـى قوة المسلمين واجتماعهم على كلمة سواء.

٣- تضخيم قوة الكافرين من يهود وصلـيبيين، وإيهام المسلمين أنه لا سبيل لهم للوصول إلى قوة أولئك الكفرة.

٤- هدم الرموز الإسلامية التى جاهدت فضحت وبذلت، وإعلاء شأن نكرات لا صلة لهم بالعمل والجهاد.

٥- التقليل من شأن التجمعات الإسـلامية الصادقة -العاملة فى البلاد الإسلامية أو الكافرة- التى تعمل على إعـلاء دين الله، وتضخيم سلبياتها وأخطائهـا، وتصوير ذلك الخطأ بأنه أمـر ناشئ عن أصل التجـمع لا عن خطأ بعض أفراده، كما هو الحال والواقع.

٦- إيهـام العامـلين بأن النجـاح أو الفشل فى الـوصول إلى الهـدف المنشـود -وهو إعلاء دين الله فى الأرض- هو المـقيـاس لنجاح أو فـشل العاملين، بينما الأمر غير ذلك فى ديننا العظيم؛ إذ النتائج بيد الله سبحانه وحـده، فقـد قال تعـالى: ﴿وَقُلِ اعْـمَلُوا فَـسَيَـرَى اللَّهُ عَـمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

«والمتدبر لآيات القـرآن يجد أن كل الآيات التى ذكر فيهـا النصر نزلت بالمدينة، وهذه لفتـة جديرة بأن يتدبـرها الدعاة إلى الله فى كل أرض وفى

كل جيل، فهى كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش، وأن تثبت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته كيف كانت هذه النهاية، ثم يكون قدر الله بدعوتهم وبهم ما يكون، فلا يلتفتون أثناء الطريق الدامى المغروس بالجماجم والأشلاء وبالعرق والدماء إلى نصر أو غلبة، أو فيصل بين الحق والباطل فى هذه الأرض، ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئًا من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله، لا جزاء على الآلام والتضحيات، لا فالأرض ليست بجزاء، وإنما تحقيقًا لقدر الله فى أمر دعوته ومنهجه على أيدى أناس من عباده يختارهم ليمضى بهم من الأمر ما يشاء، وحسبهم هذا الاختيار الكريم الذى تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة، وكل ما يقع فى رحلة هذه الأرض من سراءَ أو ضراء.

إن القرآن الكريم ينشئ قلوبًا يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع -وهى تبذل كل شىء وتحتمل كل شىء- إلى شىء فى هذه الأرض ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله، وتضحية حتى الموت بلا جزاء فى هذه الأرض، ولو كان هذا الجزاء هو انتصارَ الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين، بل ولو كان هذا الجزاء هو هلاكَ الظالمين: يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين»[(١)].

فلا شك -إذًا- أن تلك الطرق التى تسلكها بعض وسائل الإعلام كفيلة بإذهاب ثبات كثير من العاملين إلا من وفقه الله.

---

(١) «معالم على الطريق»: نقلاً عن كتاب «من ركائز الدعوة» للدكتور مجدى الهلالى: ٢٠٤-٢٠٥.

و- المجتمع الفاسد[1]:

إذ المجتمع الصالح المطيع لله -تبارك وتعالى- يساعد على تقوية الثبات عند المسلم وشد أزره، وبالعكس فإن المجتمع الفاسد مُذهب للثبات أو مضعف له، فالمقيم فى بلاد الكافرين إنما هو على خطر عظيم، فليقل من ذلك أو ليستكثر، ومخالط الفاسقين على خطر عظيم، وكل قرين بالمقارن يقتدى.

يقول الأستاذ فتحى يكن:

«أذكر أن أحد الإخوة سافر إلى أمريكا للدراسة، وكان مثال المسلم فى بلدته، والقدوة الحسنة بين إخوانه، ومكث فى أمريكا بضع سنين، وعاد بعدها إنسانًا آخر لا يمتّ بأدنى صلة إلى ماضيه القريب، لقد كان أثر البيئة عليه كبيرًا وكبيرًا جدًا بحيث أفقدته كل بريق كان يتحلى به قبل سفره المشئووم.

وإنسان آخر سافر إلى نفس هذه البيئة، ولم يتمكن من التماسك والثبات أكثر من سنة غرق بعدها إلى فوق أذنيه فى المعاصى ثم انقطعت أخباره واختفى أثره، ولا زلت حتى اليوم أذكر رسائله إلىَّ خلال عامه الأول وهى مليئة بالنقد والتعريض بأكثر العاملين فى الحقل الإسلامى من الدعاة والقياديين وكأنه فى مستوى من الالتزام لا يدانيه فيه أحد، ثم كانت النتيجة أنه نكص على عقبيه..»[2].

(١) استقيت فكرة هذه الفقرة من كتاب «من أخبار المنتكسين»: ١٦١.

(٢) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ١٢٠.

صور على احتضار الثابتين

قد جرت عادة بعض المتكلمين فى الثبات أن يذكروا قصص الضعاف والمنتكسين حال الموت، وما يصدر منهم من كلام يفضح ما كانوا فيه أثناء حياتهم، وليست بنا حاجةٌ -والله تعالى أعلم- للكلام على هؤلاء الضعاف، إنما أريد أن أذكر حال الثابتين الأقوياء حال الممات، عسى أن نكون مثلهم، وأن نقتدى بفعالهم، وأردت أن تكون تلك الأخبارُ الخاتمةَ المرققة لهذا البحث، والله الموفق.

من صور احتضار الصالحين:

١- لما احتضر أبو بكر -رضى الله تعالى عنه- تمثلت عائشة رضى الله تعالى عنها بهذا البيت:

أعاذلُ[١] ما يغنى الحذار عن الفتى   إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر رضى الله عنه: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩][٢].

٢- ولما حضر معاذًا -رضى الله تعالى عنه- الموت قال: «مرحبًا بالموت، مرحبًا زائرًا، مُغيّب حبيب جاء على فاقة، اللهم إنى قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك، اللهم إن كنت تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا

(١) أى لائم.

(٢) انظر «الزهد للإمام أحمد: ١٠٩.

وطول البقاء فيها لكَرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلق الذكر»(١).

٣- ولما حضرت عمرَ بن عبد العزيز الوفاة قال: «أجلسونى، فأجلسوه، فقال: أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت -ثلاث مرات- ولكن: لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر، فقيل له فى ذلك، فقال: إنى لأرى حضرةً ما هم بإنس ولا جن، ثم قُبض رحمه الله»(٢).

وقالت فاطمة بنت عبد الملك -امرأة عمر بن عبد العزيز وابنة عمه-: كنت أسمع عمر -رحمه الله تعالى- فى مرضه الذى مات فيه يقول: اللهم اخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذى قُبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب، وهو فى قبة له فسمعته يقول:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ثم هدأ -أى سكن صوته- فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلامًا، فقلت لوصيف له: انظر أنائم هو؟ فلما دخل صاح فوثبت فإذا هو ميت»(٣).

(١) «الزهد» للإمام أحمد: ١٨٠- ١٨١.

(٢) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» للزبيدى: ١٤/ ١٩٩، وقال الزبيدى: أخرجه أبو نعيم فى «الحلية»..

(٣) المصدر السابق: ١٤/ ١٩٧- ١٩٨، وقال الزبيدى: رواه أبو نعيم فى «الحلية».

٤- ولما حضرت بلالاً الوفاةُ قالت امرأته: واحُزناه، فقال: «بل واطَرَباه، غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وحزبه»[١].

٥- ولما طُعن حرام بن مِلحان -رضى الله عنه- بالرمح قال: «الله أكبر، فزت ورب الكعبة»[٢].

٦- لما حضرت الوفاة أنس بن مالك قال: «لقنونى لا إله إلا الله» فلم يزل يقولها حتى قبض[٣].

٧- وفتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١][٤].

٨- وكان مكحول الشامى قد غلب عليه الحزن، فدخلوا عليه فى مرض موته وهو يضحك، فقيل له فى ذلك، فقال: «ولم لا أضحك وقد دنا فراق من كنت أحذره، وسرعة القدوم على من كنت أرجوه وأؤمله»[٥].

٩- ولما نزل بابن إدريس الموت بكت ابنته فقال: «لا تبكى، فقد ختمت القرآن فى هذا البيت أربعة آلاف ختمة»[٦].

---

(١) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين»: ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق: ٢١١.
(٣) المصدر السابق: ٢١٢.
(٤) انظر «إتحاف السادة المتقين»: ١٤/ ٢١٤.
(٥) المصدر السابق: ١٤/ ٢١٩.
(٦) «إتحاف السادة المتقين»: ٢٢٠.

١٠- ولما حضرت أبا بكر بن عياش الوفاة بكت أخته، فقال لها: «ما يبكيك؟ انظرى إلى تلك الزاوية التى فى البيت، قد ختم أخوك فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة»[١].

١١- وحضرت مالكًا الوفاة فتشهّد ثم قال: «لله الأمر من قبل ومن بعد»[٢].

١٢- ولما حضرت آدمَ بنَ أبى إياس الوفاة ختم القرآن ثم قال: «بحبى لك إلا رفقت بى فى هذا المصرع، كنت أؤملك لهذا اليوم، كنت أرجوك، ثم قال: لا إله إلا الله، ثم قضى»[٣].

١٣- ودخل المزنى على الشافعى -رحمة الله عليهما- فى مرضه الذى توفى فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملى ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله -تعالى- واردًا، ولا أدرى: أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منةً وتكرما[٤]

(١) «المصدر السابق»: ١٤/ ٢٢١.
(٢) المصدر السابق: ٢٢٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) «إتحاف السادة المتقين»: ٢٣٤.

وأذكر صورة رائعة لما يجب أن يكون عليه ثبات المؤمن:

١٤- لما أُسر خبيب بن عدى -رضى الله عنه- قدمته قريش ليقتلوه، فقالوا له ننشدك الله: أتحب أنك الآن جالس فى أهلك وأن محمدًا مكانك؟

قال: والله ما أحب أن محمدًا يشاك فى مكانه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى.

وكان قد صلى ركعتين قبل أن يُقتل وقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزعٌ لزدت، وقال:

فلست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع[1]

وهناك مثالان رائعان على حسن الخاتمة حصلا فى زماننا بل فى زمن قريب منه، أولهما ما حدث لقبطان الطائرة السعودية التى تحطمت فى الهند فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٤١٧هـ، فقد سمعته فى شريط مسجل من برج المراقبة فى مطار دلهى، سمعته ينطق بكلمات خالدات، رائعات جميلات، تكلم بها عندما اصطدمت طائرته بالطائرة الكازاخستانية، وأيقن القائد بالموت، عندها قال:

«أستغفر الله، أشهد أن لا إله إلا الله»، فالله تعالى وفقه للنطق بتلك الكلمات العطرات قبل موته، وهو فى حالة صعبة مواجهًا لموت الفجأة،

(١) «إتحاف السادة المتقين»: ٢١٠.

وهذا يدل على ثبات عظيم وتوفيق كبير، فرحم الله القبطان خالد الشبيلى رحمة واسعة، وبوأه من الجنة عُليا منازلها، آمين.

وأما المثال الآخر فهو الشيخ الشهير، الخطيب المِصْقع، البليغ الداعية، فضيلة الأستاذ عبدالحميد كشك، حيث توفى فى شهر شعبان من عام ١٤١٧هـ وهو ساجد لله تبارك وتعالى فى صلاته، فقبضت روحه على هذه الهيئة المَلَكية الرائعة، وعسى أن يُبعث عليها إن شاء الله تبارك وتعالى.

***

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قد وفقنى الله -تعالى- لكتابة بحث فى هذا الأمر المهم: الثبات، وقد تبينت أثناء البحث ما يلى:

أولاً: قلة من كتب كتابة علمية جادة فى هذا الموضوع، وإنما ورد هذا البحث شذرات متفرقة فى بطون الكتب، أو فى كتيبات مستقلة تفاوتت فى كيفية تناول هذا الأمر المهم، وفى شمول ذلك التناول، وقوته أو ضعفه.

ثانيًا: إن مدار صلة المسلم بالله تعالى إنما هو على قدر ثباته ورسوخه فى فهم وتطبيق هذا الدين العظيم، لذا كان الثبات من أعظم أعمال القلوب وأهمها.

ثالثًا: إن الثبات عامل مهم فى قدر ما يقدمه المسلم من صالحات فى هذه الدار؛ إذ إن تطوعه من صيام وصلاة وصدقة ونحوها، ودعوته الخلق إلى الحقّ سبحانه وتعالى، وتصنيفه المصنفات، وتربيته الطلاب. كل ذلك متوقف -بعد فضل الله تعالى- على قدر الثبات الذى يودعه الله تعالى فى القلوب المخلصة.

فعلى العبد المسلم -إذًا- أن يضع نصب عينيه دومًا أمر الثبات وأهميته، ويحاول أن يدوم على الثبات حتى الممات، إن شاء الله تعالى.

«اللهم أنت الحى القيوم، والأول الدائم. . . والبارئ المصور، والخالق المقدس، والجبار الرفيع، والقهار المنيع، والملك الصَّفُوح، والوهاب المَنُوح، والرحمن الرؤوف، والحنّان العطوف، والمنان اللطيف، مالكُ الذوائب والنواصى، وحافظ الدوانى والقواصى، ومصرف الطوائع والعواصى. إلهى وأنت الظاهر الذى لا يجحدك أحد إلا زايلته الطمأنينة، وأسلمه اليأس، وأوحشه القنوط، ورحلت عنه العصمة، فتردد بين رجاء قد نأى عنه التوفيق، وبين أمل قد حفت به الخيبة، وطمع يحوم على أرجاء التكذيب، وسرٍّ قد أطاف به الشقاء، وعلانية أناف عليها البلاء، لا يُرى إلا. . مفسوخ القوة، مسلوبَ العُدة، تشنؤه العين، وتقلاه النفس، عَقْلُه عقلُ طائر، ولبُّه لُبٌّ حائر، وحكمه حكم جائر، لا يروم قرارًا إلا أزعج عنه، ولا يستفتح بابًا إلا أرتج دونه. . إن سمع زيف، وإن قال حرّف، وإن قضى خرّف»[1].

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

(١) «البصائر والذخائر»: ٣/ ٥-٦.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- «آفات على الطريق»: الدكتور السيد نوح.

نشر: دار الوفاء للطباعة والنشر. المنصورة. مصر. الطبعة الثامنة. سنة ١٤١٤.

٢- «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين»: السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدى.

نشر: دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٩.

٣- «الإصابة فى تمييز الصحابة»: الحافظ ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على بن محمد (ت٨٥٢).

نشر: دار الكتاب العربى. بيروت.

٤- «الاعتدال في التدين: فكرًا وسلوكًا ومنهجًا»: الدكتور محمد الزحيلى.

نشر: كلية الدعوة الإسلامية العالمية. طرابلس. ليبيا. سنة ١٤١٢.

٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين»: الحافظ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبى بكر (ت٧٥١).

تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد.

نشر: دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٧.

٦- «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»: الحافظ ابن قيم الجوزية = محمد ابن أبى بكر (ت ٧٥١).

تحقيق: الشيخ محمد حامد الفقى.

نشر: دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت.

٧- «الألفاظ الكتابية»: العلامة عبد الرحمن بن عيسى الهَمَذانى (ت ٣٢٠).

نشر: المكتب الإسلامى. بيروت ١٣٩٩.

٨- «أمل دنقل: الأعمال الشعرية الكاملة».

نشر: دار العودة. بيروت.

٩- «الإيمان والحياة»: الدكتور يوسف القرضاوى.

نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٧.

١٠- «البداية والنهاية»: الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤).

نشر: دار الفكر. بيروت.

١١- «البصائر والذخائر»: لأبى حيّان التوحيدى = على بن محمد بن العباس (ت ٤١٤).

تحقيق الدكتورة وداد القاضى.

نشر دار صادر. بيروت. الطبعة الأولى.

١٢- «تاج العروس من جواهر القاموس»: الشيخ محمد مرتضى الزبيدى (ت ١٢٠٥).

تحقيق: مجموعة من الأساتذة. طبع: مطبعة حكومة الكويت.

١٣- «التذكرة فى أحوال الموتى والدار الآخرة» الإمام القرطبى = محمد بن أحمد (ت ٦٧١).

تحقيق: د. السيد الجميلى.

نشر: دار ابن زيدون ببيروت، ومكتبة مدبولى بالقاهرة.

الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٦.

١٤- «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف»: الحافظ المنذرى = عبد العظيم بن عبد القوى (ت ٦٥٦).

ضبط وتعليق: الأستاذ مصطفى عمارة.

نشر: دار الفكر. بيروت. سنة ١٤٠١.

١٥- «تفسير القرآن العظيم»: الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤).

تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم البنا وعبد العزيز غنيم ومحمد عاشور.

طبع: مطبعة الشعب. القاهرة.

١٦- «الجامع الصحيح»: الإمام البخارى = محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦).

نشر: دار الجيل. بيروت.

١٧- «الجامع الصحيح»: الإمام الترمذى = محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٦).

حقق بعضه: الأستاذ المحدّث أحمد شاكر.

نشر: دار إحياء التراث العربى. بيروت.

١٨- «الجنوبى: أمل دنقل»: عبلة الروينى.

نشر: دار سعاد الصباح.

١٩- «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور»: الإمام جلال الدين السيوطى = عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١).

نشر: دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٤٠٣.

٢٠- «الزهد»: الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١).

نشر: دار الكتب العلمية. بيروت. سنة ١٣٩٨.

٢١- «السيرة النبوية»: الإمام عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨).

تحقيق وضبط الأساتذة: مصطفى السقَّا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى.

نشر: مؤسسة علوم القرآن. بيروت.

٢٢- «شرح صحيح مسلم للنووى»: إعداد مجموعة من الأساتذة.

نشر: دار الخير. بيروت، دمشق.

٢٣- «الصبر فى القرآن الكريم»: د. يوسف القرضاوى.

٢٤- «صفات الداعية النفسية»: الدكتور عبد الله علوان.

نشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

القاهرة، حلب، بيروت. الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦.

٢٥- «الطبقات الكبرى»: محمد بن سعد الزهرى (ت ٢٣٠).

نشر: دار صادر. بيروت. سنة ١٣٨٨.

٢٦- «طريق الدعوة فى ظلال القرآن»: أحمد فايز.

نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت.

٢٧- «عقبات فى طريق الدعاة، وطرق معالجتها فى ضوء الإسلام»: د. عبد الله علوان.

نشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

القاهرة، حلب، بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٧.

٢٨- «العوائق»: الأستاذ محمد أحمد الراشد.

٢٩- «فتح البارى شرح صحيح البخارى»: الحافظ ابن حجر = أحمد بن على بن ثابت (ت ٨٥٢).

ضبط الأساتذة: طه سعد ومصطفى الهوارى، والسيد عبد المعطى.

نشر: مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. سنة ١٣٩٨.

٣٠- «الفتور»: الشيخ جاسم بن مهلهل الياسين.

نشر: دار الدعوة. الكويت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٨.

٣١- «القدوة الصالحة أخلاق قرآنية ونماذج ربانية»: الأستاذ حسنى أدهم جرار.

نشر: دار الضياء للنشر والتوزيع. عمَّان. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٥.

٣٢- «لسان العرب»: ابن منظور الإفريقى = محمد بن مكرم (ت ٦٣٠).

نشر: دار صادر. بيروت.

٣٣- «المتساقطون على طريق الدعوة»: الدكتور فتحى يكن.

نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت.

٣٤- «مجمع الـزوائد ومنبع الفوائد»: الحافظ نور الدين الهيـثمى = على ابن أبى بكر (ت ٨٠٧).

نشر: مؤسسة المعارف. بيروت. سنة ١٤٠٦.

٣٥- «مختـصر تاريخ دمشق»: تاريخ دمشق للحافظ ابن عـساكر = على ابن الحسن (ت ٥٧١).

ومختصره لابن منظور الإفريقى = محمد بن مكرم (ت ٦٣٠).

نشر: دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٩.

٣٦- «مختصر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية»: للإمام عبـد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقـدسى = أبو شامة (ت ٦٦٥).

اختصار: مؤلف هذا الكتاب.

نشر: دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع -جدة- الطبعة الأولى - سنة ١٤١٨.

٣٧- «مدخل إلى ظلال القرآن»: د. صلاح الخالدى.

نشر: دار المنارة للنشر والتوزيع. جدة. الطبعة الأولى. ١٤٠٦.

٣٨- «المستقبل لهذا الدين»: الأستاذ سيد قطب (ت ١٣٨٦).

نشر: دار الشروق. القاهرة، بيروت. سنة ١٣٩٤.

٣٩- «معـالم الدعـوة فى قصص القـرآن الكريم»: د. عبـد الوهاب بن لطف الديلمى.

نشـر: دار المجتـمع للنشر والتـوزيع. جـدة. الطبعـة الأولى. سنة ١٤٠٦.

٤٠- «معالم فى الطريق»: الأستاذ سيد قطب (ت ١٣٨٦).

نشر: دار الشروق: القاهرة، بيروت. سنة ١٤٠١.

٤١- «من أخبار المنتكسين مع الأسباب والعلاج»: صالح العصيمى.

نشر: دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع. الرياض. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٦.

٤٢- «من ركائز الدعوة»: د. مجدى الهلالى.

نشر: دار البشير. طنطا. مصر.

٤٣- «المنطلق»: الأستاذ محمد أحمد الراشد.

نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٦.

٤٤- «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: المؤلف.

نشـر: دار الأندلس للنشر والتـوزيع. جـدة. الطبعـة الأولى. سنة ١٤١١.

٤٥- «الوافي بالوفيات»: الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبَك الصَّفَدي.

تحقيق: مجموعة من الأساتذة.

دار النشر: فرانز شتاينر. شتوتجارت. ألمانيا.

٤٦- «وسائل الثبات على دين الله»: الشيخ محمد المنجد.

***



فهرس الموضوعات